

## 16- فتح مكة

تمكن علي (ع) من خلال بطولته الرادعة في خيرير وذات السلاسل، وقبلها في بدر وأحد والخندق، من تحقيق ثلاثة أمور عجز عن تحقيقها بقية المقاتلين من المسلمين، وهي:

**1 -** وضع الحرب على خشبة المسرح العقلاني. بمعنى ان العدو من عبدة الاوثان اذا كان يفكر سابقاً بنزوات انتصاره واوهام الاستيلاء على غنائم المسلمين وتدمير دينهم، فانه اليوم - وبفضل تحقق الردع- اصبح يفكر باحتساب الهزيمة التي سيُمنى بها دون شك. والقاعدة ان الردع اذا كان قوياً، فان العدو سيفكر - جدياً- بالاستسلام دون اراقة مزيد من الدماء.

**2 -** جعل التهديد الرئيسي ينبعث من وسط معسكر المسلمين ضد معسكر المشركين. أي انه جعل المسلمين اصحاب المبادرة، كما حصل في الهجوم على جيش ذات السلاسل من المشركين وقت الفجر، وكما حصل في استدراج «مرحب» الى القتال والمبارزة في خيرير، وكما حصل في استدراج «عمرو بن عبد ود» الى المبارزة في الاحزاب، ونحوها. وبمعنى ثالث انه جعل المقاتلين المسلمين في موضع الهجوم، وجعل المشركين في موضع الدفاع. وهذا تبديل استراتيجي خطير لصالح الاسلام.

**3 -** ساهمت بطولة علي (ع) في تحديد عدد البدائل التي كانت متاحة للعدو، وجعل الدخول الى الاسلام أو الاستسلام دون قتال أهم البدائل، وجعلت بديل الحرب ادنى البدائل حظاً في الاختيار من قبل المشركين.

وهكذا كان، وقد فتحت مكة في شهر رمضان من بعد ثمان سنوات من هجرة المسلمين التاريخية منها الى المدينة، بعد ان أيقن المشركون ان الحرب هي ادنى البدائل حظاً في الاختيار. فاستسلموا وأسلموا، وأمكنه الله سبحانه من رقايم عنوة فكانوا له (ص) فيئناً. ولكنه (ص) خاطبهم قائلاً: اذهبوا فأنتم الطلقاء<sup>1</sup>.

### فتح مكة وقيادة العالم:

وفتح مكة كانت عملية تاريخية ضخمة ينبغي فهم آثارها أو مقتضياتها بنفس درجة فهم اسبابها أو عللها. فمع ان شجاعة رسول الله (ص) والامام (ع) الفائقين كانتا من أهم عللها، فإن آثارها كانت خطيرة للغاية. ذلك ان فتح مكة وضع القيادة الدينية الاجتماعية للعالم بيد المسلمين بعد ان كان قادة المشركين يحكمون الناس بالظلم ويعيثون في الارض فساداً. فدخل الناس، مؤمنين باطناً وظاهراً، في دين الله افواجاً. وقد

**1** «سيرة ابن هشام» ج 4 ص 54 - 55.

تنبأ كتاب الله المجيد بتلك الاحداث فقال: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)<sup>2</sup>.

واصبح الاسلام بعد فتح مكة قوة عالمية تستطيع مواجهة قوى الفرس أو الروم والانتصار عليهما، وقادرة على تثبيت الأمن العالمي في ذلك الوقت تحت شعار: لا إله الا الله، محمد رسول الله. وبذلك كان فتح مكة اعادة لبناء التركيب السياسي والاجتماعي للعالم على ضوء الدين الجديد. في وقت كان العالم يبحث فيه عن قيادة جديدة تحقق العدل الاجتماعي والأمان والتوحيد، فكانت قيادة رسول الله (ص) تحقق ثبات دولة الايمان العالمية ونظامها الامني والحقوقية.

والسبب في ذلك ان العالم يتضمن شعوباً متباينة في التقاليد والعادات واللغات، ولا يمكن ان يجمعها الا دين سماوي واحد. فكان الاسلام هو الدين القادر على جمع ذلك العدد الهائل من البشر تحت سقف خيمة واحدة وفي ظل لواء واحد. ولا يستطيع احد تحمل مسؤولية ادارة ذلك التجمع العالمي اجتماعياً وسياسياً الا رسولاً يوحى اليه. فكان رسول الله (ص) هو حامل المسؤولية العالمية. وكان من خلفه المؤهل الاول لتسلم القيادة الدينية بعده (ص) أمير المؤمنين (ع).

### علي (ع) منقذ الموقف:

وقد كان علي (ع) موضع ثقة رسول الله (ص) في فتح مكة. فحينما هتف أناسٌ من المسلمين من الذين لا زالوا لم يفهموا ابعاد الدين بعد: اليومُ يوم الملحمة، اليوم تُستحل الحُرمة<sup>3</sup>. دعاه النبي (ص) لتدارك الوضع الخطير الذي كان سيؤدي حتماً الى سفك الدماء على غرار الجاهلية ولكن باسم الاسلام هذه المرة. وأمره (ص) بحمل الراية والدخول الى مكة في المقدمة. فكان علي (ع) منقذ الموقف حيث دخل مكة وهو يحمل راية التوحيد والسلام. وعندما قام خالد بن الوليد بقتل من قُتل من بني حُذيمة<sup>4</sup>، ودّاهم رسول الله (ص) فبعث علياً (ع) لتسوية الوضع. وارشده (ص) بالقول: (يا علي، اخرج الى هؤلاء القوم، فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك)<sup>5</sup>. وقبلها، عندما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم مقتلاً، جاء أبو سفيان الى المدينة معتذراً بعد فوات الاوان. فلم يفلح في مسعاه، ولكن ابو سفيان رأس الشرك

2 سورة النصر: آية 1 - 3.

3 «سيرة ابن هشام» ج 4 ص 49.

4 م. ن. - ج 4 ص 72.

5 م. ن. - ج 4 ص 72.

الذي حارب الاسلام والنيبي (ص) وعلياً (ع) أشد حرب، وجد علياً (ع) - اذا صحّت الرواية- ألين القوم معه وأشدّهم نصحاً له<sup>6</sup>. وهكذا كان خلق الانبياء والاوصياء (ع). وهكذا تعامل رسول الله (ص) في مكة مع الطلقاء.

### جاء الحق وزهق الباطل:

إن أهم ما حصل من أحداث عند دخول رسول الله (ص) مكة فاتحاً، هو تحطيم الاصنام الضخمة بأمر النبي (ص) ويبد علي (ع)، التي تكسرت كما تنكسر القوارير. وعندها قال (ص): (ايه ايه..جاء الحق وزهق الباطل. ان الباطل كان زهوقاً)<sup>7</sup>.

كان قدوم الاسلام منتصراً، انذاراً للباطل بالتوقف عن الوجود في المجتمع وفي ذات المؤمن على الاقل. فالمؤمن بتعاليم الدين السماوي يؤمن بالحق ويبي وجوده الاجتماعي والذاتي الجديد على اساس ايقاف الباطل وحذفه من حياته الشخصية. وهذا يعني اننا اذا الغينا الباطل من الساحة الاجتماعية، كما فعل رسول الله (ص) وعلي (ع) بتحطيم الاصنام، فان ذوات الناس سوف تفتح على الخير وعلى الاستماع الى الحق. وهنا يتخبر العاقل بحرية، في ذلك الجو المنفتح وتلك الارضية الواسعة، بين الحق والباطل. فيختار الحق على الباطل حتماً.

ولو كان الباطل قضية متعلّقة بالاخلاق لاستطاع الانسان دحرها من دون مساعدة الدين، بل لكان العقل سلاحاً كافياً من أسلحة دحر الباطل. ولكن الحقيقة تقول: بأن للباطل كياناً مستقلاً لا يقف امامه الا الدين.

فمع ان العقل يدعو الى التوحيد والعدل، الا ان العقل المجرد عن الايمان قد يدعو الى الفساد والدمار والشرك. فالعقل لوحده لا يستطيع دحر الباطل. ولو كان العقل كافياً لادراك معاني الوجود لانتفى دور الدين في حياة الانسان. فقضية الباطل ليست منحصرة اذن بالفلسفة الاخلاقية فقط، بل ان إزالة الباطل موكولة الى تعاليم الدين ومقدار أدائها من قبل المؤمنين.

فلا شك ان زوال الباطل يتحقق عندما يمارس المكلفون تكاليفهم الشرعية ويتنعمون برحمة القوانين الدينية، وعندها ينتهي الفساد والظلم والشرك. فتثبيت الحق مرهون بتقوية شوكة الدين. ومن هنا نفهم مغزى

6 م. ن. - ج 4 ص 39.

7 «المستدرك على الصحيحين» ج 2 ص 366.

مخاطبته (ص) لعلي (ع): ايه ايه (... جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)<sup>8</sup>. فبتحطيم رمز الوثنية والشرك في مكة، بدأ الازدعان لتقبل فكرة انتصار الاسلام وقيمه السماوية في الخير والعدالة والمحبة والصلاح، على مبادئ الظلم والفساد والشرك.

ومن هنا: جاء الحق وزهق الباطل، بكل ما تحمله تلك الالفاظ من معان ومفاهيم وأفكار. فقد جاء الحق عبر رسالة السماء محملاً بمفاهيم العدالة والخير والاحوة والمحبة والتعاون، وعندها انفتح الباب لاختيار طريق الخير بدل طريق الشر، وعندها كانت الحكمة الالهية: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي...)<sup>9</sup>، لان الانسان بطبيعته يختار الخير على الشر، ويختار الحق على الباطل.

وتلك المقولة النبوية جبلي بالمعاني العديدة التي يمكن ان يستظهرها المفكر الاسلامي. ومن تلك المعاني نظرية «حتمية محق الظلم وحتمية انتصار الدين» على المدى البعيد. فتللك النظرية تعرض علينا امكانية صياغة استراتيجية الاسلام بالنسبة للعالم والتاريخ. فالدين هو الحق، والكفر أو الظلم هو الباطل. ولا بد ان ينتصر الدين ويندحر الباطل ويموت. لان الحق باق الى الابد، والباطل ميّت الى الابد بظهور الاسلام وانتشاره في آفاق الارض. ومن هنا نفهم ان فتح مكة كان البوابة العظمى للانفتاح على البشرية في القلب والعقل والادراك على مدى الزمن.

## 17- غزوة حنين

وقعت هذه الغزوة بعد شهر واحد فقط من فتح مكة. وكانت الغزوة تأديبية ضد هوازن وثقيف اللتين جمعتا جيشاً كبيراً قوامه ثلاثون ألفاً ضد المسلمين. واغترّ المسلمون بكثرتهم، في جيش قُدّر باثني عشر ألفاً، فقال تعالى يصف حالهم: (... وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ...) <sup>10</sup>. فانهزم المسلمون في اللحظات الاولى من المعركة عدا رسول الله (ص) وعلي (ع) ومجموعة قليلة من الهاشميين.

وكان ثباتهم قد غير مسار المعركة، خصوصاً عندما قتل علي (ع) «أبا جرول» إمام هوازن، وبعضاً من أبطالهم. وكانت هزيمة المشركين بقتل أبي جرول. فما الذين حصل في تلك المعركة؟

8 سورة الاسراء: آية 81.

9 سورة البقرة: آية 256.

10 سورة التوبة: آية 25.

لقد تجلّت في تلك المعركة أمور ثلاثة مهمّة ينبغي التوقف عندها وهي: أ- العُجب. ب- الفرار. ج- ثبات الهاشميين.

#### أ - العُجب:

يعني العُجب تناقص القوة العقلية في النظر الى القضايا الواقعية الخارجية. وتلك الصفة غير المحمودة لا تغيّر من القوة البصرية للنظر ولا من كثافته؛ ولكنّها تجعل الصور العقلية التي يجلّها الذهن صوراً غير واقعية، كما قال تعالى: (... إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً...) <sup>11</sup>. وهنا تصبح الحقائق الواقعية الخارجية مجرد سراب خادع للنظر. فتصبح الكثرة العددية - في عقل المأخوذ بالعُجب - أمراً مبالغاً فيه، وتصبح الاشياء والصفات المضادة للكثرة كالشجاعة والإقدام والقلة المضحية مجرد قضايا هامشية أصغر من حجمها الحقيقي الواقعي.

والاصل في المسألة، ان الصور العقلية المخزونة في ذهن الانسان، والتي تحصل غالباً من مجموعة تراكمات ذهنية سابقة، هي التي تحدد الصورة الجديدة للواقع القديم. فالذين انهزموا في حنين بعد ان أعجبتهم كثرة المسلمين، انما انطلقوا من موقع سراب الصور العقلية التي حملوها قبل الاسلام، ومن موقع إيمانهم القبلي بأن الكثرة - لا الايمان والثبات- هو الذي يحدد مصير المعركة الحاسمة. وفي ذلك دلالة على ان عناصر الايمان لم تكن راسخة في عقولهم ولا في قلوبهم.

ولاشك ان الصورة الذهنية عن القضايا الخارجية تتحوّل الى قضية معرفية. فهنا عندما يُثار عجب البعض بالكثرة العددية، فاهم يبنون عليها قضايا معرفية خاصة مثل: عدم جدّيتهم في قتال العدو، وإيمانهم بأن هزيمة العدو أمر حتمي، وانحصار تفكيرهم بالغنائم. ولذلك فقد كانوا أول من فرّ من المعركة، لانهم تصوّروا - خطأً- ان الكثرة ستكون عاملاً من عوامل حمايتهم من سيوف الاعداء المحاربين.

#### ب - الفرار:

والفرار في المعركة ما هو الا أثر من آثار الخوف من الموت، وقد أشار تعالى الى ذلك بالقول: (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ...) <sup>12</sup>. وأشار الى معركة حنين بالخصوص، فقال: (... وَضَاقَتْ

11 سورة التوبة: آية 25.

12 سورة الجمعة: آية 8.

عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ...»<sup>13</sup>. ذلك ان الذي يخاف من الموت، فان وضعه الشخصي يعبر عن حالة من الحالات النفسية والعقلية التالية:

**الاولى:** انه لم يفهم بعد مقاصد الدين والشريعة فهماً يقينياً، بحيث يؤمن يقيناً بأن الموت يقربه الى الله سبحانه في جنان الخلد والنعيم.

**الثانية:** ان يملك حب الدنيا قلبه الى درجة انه لا يحب مفارقتها. فالمكتسبات المادية التي اكتسبها خلال حياته الدنيوية تجعله يركن الى الدنيا أكثر مما يطمح الى الآخرة.

**الثالثة:** ان تكون ذنوبه كبيرة الى درجة انه يخاف الموت، لانه يخاف العقاب والعذاب.

وتلك الحالات جميعاً تعبر عن حالات مَرَضِيَّة عند المقاتلين لا يستقيم معها أمر الدين والجهاد. ومن هنا كانت القاعدة بأن المقاتل المؤمن عندما يدخل المعركة ينبغي ان يقاتل وأمام عينيه الموت وفكره مشغول بلقاء الله تعالى. والآ فان لم يكن كذلك، فان تفكيره سينشغل بمقدار المال الذي يملكه، وعدد الاولاد المنتسبين له، وزوجته التي يحن اليها، واللذائذ التي يمكن ان تقدمها الدنيا له وهو على قيد الحياة. وهنا إذا تأججت نار الحرب، فانه أول من يفرّ من المعركة أو يهرب من الموت الذي ينتظره فيها. وهو لا يعلم بـ : «انّ الموت طالبٌ حثيثٌ لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب» كما اشار أمير المؤمنين (ع) الى ذلك. ثم اردف (ع) قائلاً: «إن أكرم الموت القتلى! والذي نفس ابن ابي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على الفراش في غير طاعة الله»<sup>14</sup>.

وبكلمة، فان الذين يفرّون من المعركة هم الذين لا يملكون يقيناً بحقائق الدين، ولا يرجون لقاء الله، بل ان همهم أن يبقوا أحياء في الدنيا، بقي الدين على الارض ام انهزم أمام قوى الشرك. ولذلك شدد المولى عزّ وجل على قضية الثبات في المعركة قائلاً: (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار. ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير)<sup>15</sup>.

13 سورة التوبة: آية 25.

14 «فتح البلاغة» - الخطبة 122 ص 220.

15 سورة الانفال: آية 15 - 16.

## ج - ثبات علي (ع) والهاشميين:

ولم يثبت في المعركة الا تسعة نفر من بني هاشم مع رسول الله (ص)، بالإضافة الى أيمن ابن أم أيمن. فقتل أيمن (رضوان الله عليه) وثبت الهاشميون التسعة حتى ثاب الى رسول الله (ص) من كان قد انهزم في البداية. وصمد أمير المؤمنين (ع) لابي جرول وبارزه وصرعه. فانهزم القوم من بين يديه (ع). وكانت هزيمة المشركين بقتل ابي جرول.

ويجدر بنا هنا النظر الى حقيقة أساسية وهي ان معركة حنين قد وقعت بعد شهر واحد فقط من فتح مكة. فلو تحققت هزيمة المسلمين عند فرارهم من مضائق حنين وكان علي (ع) غائباً على سبيل الافتراض، لكانت تلك هزيمة ساحقة يتحدّث عنها التأريخ بسخرية. ذلك لان هزيمة من ذاك القبيل كانت ستحطم معنويات المسلمين، وكانت ستدمر كل ما انجزوه من انجازات دينية وعسكرية على صعيد عالم الجزيرة العربية. فكان مقتل إمام هوازن على يد أمير المؤمنين (ع) قد غيّر سير المعركة وبدّل نتائجها ومقتضياتها.

## 18 - غزوة تبوك

وغزوة تبوك الشاقة بقيادة رسول الله (ص) انتهت بالجزية دون قتال. وهي آخر غزوة غزاها رسول الله (ص) قبل وفاته. وكانت تلك الغزوة الظافرة تقتضي اما ان يبقى رسول الله (ص) واما علي (ع) في المدينة ويذهب الآخر مع الجيش لقتال المشركين، بسبب بُعد المسافة، وضرورة وجود مدير يدير عاصمة الاسلام ويدافع عنها وقت الحاجة. فاختار رسول الله (ص) ان يُبقى علياً (ع) في المدينة، وقال له: «يا علي أتما خلفتك على اهلي، اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي بعدي»<sup>16</sup>. وفي تعبير آخر: «اخلفني في اهلي واهلك».

والمصادر اللغوية تعترف بان الاهل هم «أهل الرجل وأهل الدار»<sup>17</sup>. ولا شك ان رسول الله (ص) لا يقصد بـ «اخلفني في اهلي» الاستخلاف على بيت النبي (ص)، لان ذلك يتعارض مع مفاهيم الشريعة واحكامها. فبيت النبي (ص) يأوي زوجاته (ص)، ولا وجه للاستخلاف في ذلك لان علياً (ع) ليس ابناً لرسول الله (ص) مثلاً. واذا اضفنا مسؤولية النبي (ص) الشرعية في الولاية على المسلمين، يصبح معنى «اخلفني في اهلي» هو: اخلفني في اهل داري، وهي دار الاسلام. بمن فيهم المتظاهرون بالاسلام وقلوبهم غير مؤمنة به، ويشمل ايضاً العاجزين والقاعدين لاسباب شرعية وغير شرعية.

<sup>16</sup> «الخصائص» ص 14. رواها النسائي باسناده عن سعد بن ابي وقاص.

<sup>17</sup> «الصحاح» ج 3 ص 1628 مادة «أهل».

وكان لاستخلاف الامام (ع) على المدينة دلالات كبيرة. فقد كانت تلك الغزوة آخر غزوات النبي (ص) وابعدها عن المدينة. فكان لا بد من اجراء احترازي لمستقبل الاحداث في الاسلام، وكان لا بد من عرض واضح لاطهار مقدره علي (ع) في الادارة الاجتماعية لمجتمع المسلمين، وكان لا بد من ارسال رسالة واضحة المعالم للطامحين بخلافة رسول الله (ص) بالتخلي عن مطامعهم لان علياً (ع) هو المؤهل الوحيد لتلك المهمة الاستثنائية.

ولا شك ان كلمات الاستخلاف كانت واضحة وقوية للغاية، فقد جعله (ص) بمنزلة هارون من موسى، لكنه نفى النبوة بعده. والقوة في التعبير لا تُبقي مجالاً للشك في منزلة علي (ع) في الاسلام ودرجة قرابته الدينية والعلمية من رسول الله (ص).

### معاني الاستخلاف على المدينة:

كانت لخلافة علي (ع) على المدينة معانٍ ضخمة، أراد المنافقون في ذلك الزمان التقليل من شأنها وتحجيمها. الا ان دراسة معمّقة لطبيعة ذلك الاستخلاف يكشف عن انه لم يكن مجرد استخلاف على مجموعة افراد، بل كان استخلافاً على مجتمع مؤسسات ودولة بكل ما تعنيه الكلمة.

وفلسفة «اخلفني في اهلي» تقتضي الحفاظ على مجموعة من الانظمة الاجتماعية والاجهزة الدينية التي تُمسك بخيوط المجتمع. فهي تقتضي الحفاظ على تركيبة النظام الاجتماعي والسياسي للمجتمع الديني من حيث الهرم الاداري. وتقتضي ايضاً الحفاظ على العمليات الاجتماعية من زاوية القضاء وحل الخصومات، وتوزيع الثروة واشباع الفقراء، والتعدييات واقامة الفرائض الجماعية، وعدالة السوق التجاري ونظافته من الربا والاحتكار، وتطبيق العقوبات على المنحرفين ونحوها. وهذا كله يفضي بانتقال الادارة الاجتماعية من يد امينة الى يد امينة اخرى. فاذا أُريد لحركة الاسلام ان تستمر، كان لا بد ان يخلف النبي (ص) شخصاً عالمًا مؤتمناً كفوءاً لادارة مجتمع المدينة خلال غيابه في تبوك، كما خلف النبي موسى (ع) اخاه هارون لادارة شؤون مجتمع بني اسرائيل خلال غيابه (ع) عنهم والتماسه الجبل.

ولا شك ان تبوك كانت مرحلة تمرين وامتحان للصحابة بحسن استيعاب قضية الولاية الشرعية بعد رسول الله (ص) وفهمها فهماً صحيحاً بعيداً عن الاهواء والطموحات السياسية القبليّة. خصوصاً وان قضية تبوك ونظرية «اخلفني في اهلي» قد جاءت قبل واقعة الغدير بفترة زمنية قصيرة.

ومن الطبيعي فان فكرة النيابة مشروطة بتطابق التكليف مع القدرة الكاملة على انجازه تاماً. والسبب في اننا نولي أهمية بالغة لفكرة الاستخلاف على صعيدي السلطة وادارة المجتمع، هو ان لها تأثيراً على حقوق الناس ومعتقداتهم وتكليفهم الشرعية والاجتماعية.

### شروط الاستخلاف:

و دراسة واعية لحجم المسؤولية الملقاة على عاتق علي (ع) في الاستخلاف على المدينة خلال غزوة تبوك يكشف عن عمق شخصية الامام (ع) وعلاقته الصميمية بالنبوة وبمحمد (ص). فقد كان المصطفى (ص) يعلم ان في شخصية علي (ع) ثلاثة شروط تستطيع ان تحقق خلفاً صالحاً لخير سلف، وهي:

**الاول:** قوة ادراك علي (ع) لمقتضيات الشريعة واحكامها ونظامها الاخلاقي والعقائدي. وكان ذلك واضحاً في ادراكه اسرار القرآن الكريم، والسيرة النبوية الشريفة. وهي ما نسميها بالعصمة.

**الثاني:** قوة علي (ع) الذهنية التي تستطيع ان تدير الامور الاجتماعية في عاصمة الدولة الاسلامية. خصوصاً اهتمامه بالفقراء، والمعوزين، وتقسيم الثروة الاجتماعية بالتساوي لمستحقيها.

**الثالث:** قدرة الامام (ع) في إحكام تماسك المجتمع الاسلامي دينياً، لانه كان يمتلك تلك الشخصية الاستثنائية في البطولة، والايتار، والزهد، والتقوى، والعلم، والعبادة، ومواساة الفقر والمحرومين.

وتلك الصفات الفاضلة في شخصية واحدة لها القدرة على جمع العابد مع العالم، والتاجر مع الفقير، والغني مع المحتاج، والقوي مع الضعيف. واذا تم جمع تلك العناصر في خيمة اجتماعية واحدة يسودها الحب والتكاتف والمسؤولية، اقترب الاسلام من تحقيق اهدافه العليا في الحياة.

فالاستخلاف اذن كان يمثل إرادة الدين في ادارة مجتمع دار الاسلام. وما يريده الدين هو ارادة الشريعة والملاكات التي تمثله احكامها. فرؤية الدين تجاه الذين تعينهم السماء يتطابق مع رؤيته لملاكات الاحكام ومقتضياتها. ولذلك كان علي (ع) - في نظر السماء - حارساً لاحكام الشريعة وملاكاتها في غياب النبي (ص). وهذا المعنى مطابق تماماً لفكرة: «اخلفني في اهلي».

### مواضع الاستخلاف:

ودار الاسلام في تلك الفترة كانت تشتمل على مؤسسات اجتماعية خاصة بالدولة، (منها): بيت المال، الذي كان من أهم المؤسسات التي كان يرعاها رسول الله (ص) وخليفته (ع) لانها كانت توزع الحقوق على الفقراء من صدقات واحماس وزكوات واجبة أو مندوبة. و(منها): السوق التجاري الذي كان مزدهراً بالمواد

الغذائية من قمح وشعير وتمر وزبيب ونحوها. و(منها): المسجد، الذي كان داراً للدولة في العبادات والخطط الحربية والتبليغية والتعليمية. و(منها): القضاء، وهي المؤسسة التي تهتم بحل النزاعات بين المتخاصمين. و(منها): الزراعة والصناعة والأحياء العمرانية. وتلك المؤسسات كانت بحاجة الى ادارة اجتماعية وتنظيم ديني للاولويات.

اما الافراد الذين خُلف على ادارتهم فقد كانوا مؤلفين مما يلي: المؤمنون الفقراء الذين بقوا في المدينة لانهم لم يتمكنوا من تحصيل عُدّة السفر والجهاد، والقاصرون من نساء وذراري من عوائل المقاتلين الذين ذهبوا الى تبوك، والعاجزون عن القتال لاسباب صحية كالمرض والسن، والمنافقون الذين كانوا يتظاهرون بالاسلام وكان بينهم اغنياء و متمولون، وأهل الذمة من يهود ونصارى، وبقية الافراد كالأعراب الذين يأتون الى المدينة من البوادي، والتجار الذين كانوا يَمْرُون بالمدينة وهم في طريقهم الى العراق والشام واليمن.

ولا شك ان ذلك الاستخلاف على المدينة كان تجربة فريدة للامام علي (ع) في الادارة الاجتماعية، خصوصاً انه كان متوقفاً للنبي (ص) ان يرجع ويرى عمل علي (ع) خلال غيابه. وكان امضاؤه (ص) لادارة علي (ع) شهادة عظيمة على كفائته (ع) وقدرته على تنظيم أمور المجتمع الاسلامي بعد رحيله (ص) المحتوم الى الرفيق الاعلى.

### تبليغ سورة براءة:

ولم يتوقف الامر على ذلك الاستخلاف التاريخي على المدينة، بل عندما رجع رسول الله (ص) من غزوة تبوك في شهر رمضان من السنة التاسعة للهجرة، أمر (ص) المسلمين في ذي الحجة من نفس السنة - أي بعد شهرين فقط - بالتحرك لاداء فريضة الحج وكان على امرتهم ابو بكر. فلما نزلت سورة براءة أمر علياً (ع) بتبليغ الناس بمضمونها، وهي: حرمة حج المشركين بعد ذلك العام، وحرمة الطواف بالبيت عراة، ومن كان له عند رسول الله (ص) عهد فهو الى مدته وغيرها من الاحكام والمفاهيم الاخلاقية. وقال (ص) قوله المشهورة: «لا يؤدي عني الا رجل من أهل بيتي»<sup>18</sup>.

وسورة براءة لها خصوصية بنقض ما بين النبي (ص) وبين المشركين من العهد العام، والعهود الخاصة بينه (ص) وبين بعض قبائل العرب. ولها معانٍ ضخمة في البراءة من المشركين ومقاتلتهم بقوة وجدّ، والنهي عن موالاتهم، وفيها حديث عمّن تخلف من المنافقين عنه (ص) في تبوك. فكشفت سرائر الناس خصوصاً المنافقين. وتلك المعاني الضخمة لا يستطيع حملها الا رسول الله (ص) أو رجل منه، كما قال (ص) ذلك.

18 «سيرة ابن هشام» ج 4 ص 190 - 191.

فاذا اضعفنا ذلك الى بطولة الامام علي (ع) ودوره الحاسم في قتال المشركين وبلاغة منطقته وعلو شأنه في الدين، لتبين لنا انه كان البديل الوحيد لرسول الله (ص) في تبليغ تلك السورة المبعثرة المشققة الحافرة، بكل قوة في مكة. فهو لا يخاف مشركاً ولا كافراً ولا شجاعاً من شجعانهم ولا فارساً ولا راجلاً، بل انه ارعب في ساحات المعارك ابطالهم وقتلهم شر قتلة. وكان اطهر الناس بعد النبي (ص) واكثرهم خشوعاً وتعلقاً بالله سبحانه واكثرهم زهداً وتعافياً عن الدنيا.

ولذلك كان علي (ع) ابلغ المؤمنين في توصيل سورة براءة الى عالم ذلك الزمان، كي يؤمنوا وتخشع قلوبهم لذكر الله عز وجل.

### 19- نظرة شاملة في حروب الامام (ع) بجوار النبي (ص)

لم يكن اندفاع الامام (ع) في مواجهة الموت والقتال في سبيل الله ناشئاً من منطقة فراغ، بل كان اصراره على القتال مستخلصاً من القرآن المجيد. فقد تناول القرآن مسألة القتال والجهاد بكثير من العناية والاهتمام باعتباره وسيلة من وسائل نشر الدين الحنيف ودحر الكفر والباطل. فقال سبحانه: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ...)<sup>19</sup>. (وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ...)<sup>20</sup>.

وقد كان ذلك الحث المتواصل على الجهاد مدعاة لنشوء معارك كبرى خاضها الاسلام ضد الشرك. وكانت معارك بدر الكبرى، وأحد، والخندق، وخيبر، وذات السلاسل، وحنين معارك كبرى بلحاظ النتائج المتمخضة عنها والآثار التي سببتها. وكان من آثارها ردع العدو الذي تمثل بفتح مكة دون سفك دماء، وتبوك حيث دُفعت الجزية وتمت المصالحة عليها. وهكذا أدت الشجاعة العظيمة وحب لقاء الله بالموت على فراش الاستة، دورها الحقيقي في نشر الاسلام بين الناس وتثبيت اسس الدين.

وكان من آثار شجاعة الامام علي (ع) في الحروب التي خاضها مع رسول الله (ص) خلال مراحل تكوين الدولة الاسلامية وتثبيتها، هو نقل المجتمع الاسلامي من مجمع محلي الى مجتمع عالمي له قانون ونظام وادارة تستطيع قيادة العالم. فقد برز الاسلام قوة عالمية بعد المعارك التي خاضها محمد المصطفى (ص) جنباً الى جنب مع علي (ع). وبعد الانتصارات التي تحققت في بدر وخيبر وذات السلاسل وفتح مكة وحنين وتبوك، برز الجيش الاسلامي واحداً من اقوى الجيوش في العالم القديم.

19 سورة البقرة: آية 190.

20 سورة البقرة: آية 191.

وبذلك تراكمت لديه الخبرات العسكرية والمعدّات اللازمة التي تهيؤه للحروب الكبرى القادمة مع الروم والفرس، والسيطرة على التجارة العالمية، ومن ثمّ صياغة النظام السياسي السماوي للعالم. لقد وجّه الامام (ع) شجاعته من أجل الاسلام، وفي سبيل الله خالصة دون أية مطامع دنيوية. ولذلك فقد كان عدو المشركين الاول بعد رسول الله (ص). وبكلمة، لقد كان الامام (ع) رفيق النبي (ص) في كل جهاد ونصر على الكافرين، وكان شريكه في كل جرح وقرح ومعاناة في سبيل الله سبحانه. ذلك ان سيف علي (ع) ترك آثاراً عميقة في المجتمع الاسلامي، كما تركت كلمات رسول الله (ص) وسيرته آثارها العميقة عليهم.

ومن هنا قيل ان كل حرب لا تحمل الآثار المتوقع حملها، لا يمكن ان تعدّ حرباً مؤثرة. أي ان قيمة الحرب تحدد بمقدار التبعات التي تنتجها في النظام الاجتماعي ومقدار التغيرات التي تحدثها في التركيبة الدينية للطرف المنهزم. وبالاجمال، فان تفسير اسباب الحرب يرجع بالدرجة الاولى الى فهم وظيفة آثار المعركة الحربية من حيث التغيير في تركيبة المجتمع وتبديل صورة النظام الاجتماعي.

#### الشخصية القتالية:

ويكفينا الان ادراك طبيعة الشخصية القتالية الفذة للامام (ع) عبر النقاط التالية:  
**أولاً:** كانت طبيعة التربية النبوية لعلي (ع) منصبّة على تعليمه طرق تمييز الخير من الشر، والحق من الباطل، والمعبود من العابد، والخالق من المخلوق. فصورة الرغبة في القتال تفترض ان الحرب هي وسيلة من وسائل محق الشر وازهاق الباطل وتثبيت الخير واحقاق الحق.  
**ثانياً:** ان التعامل الاخلاقي لعلي (ع) في الحروب التي خاضها في حياته مثل: عدم الكرّ عندما يفرّ العدو، والصفح عن المسيء عندما يتمكن منه، والقتل خالصاً لوجه الله، كلّها تدلّ على ان بطولته (ع) كانت عملية أخلاقية صاغها السلوك العقلي الديني.

**ثالثاً:** لا يمكن الاخذ بصفة الشجاعة عند الامام (ع) بصورة منفصلة عن الصفات الشخصية الاخرى كالزهد والتقوى والتعفف عن ملاذ الدنيا الفانية. فاذا أضفنا تلك الصفات في القدرة على نبذ ملذات الدنيا -حلالها فضلاً عن حرامها- الى البطولة الخارقة، كان العامل الشخصي المحرك للحرب عند علي (ع) عاملاً اخلاقياً نظيفاً نابعاً من جوهر الدين في محاربة الشر والباطل بما فيه من ظلم ورذيلة وفساد.

رابعاً: ان بطولة علي (ع) في المعارك الطاحنة كانت عاملاً مهماً من عوامل الردع النفسي ضد العدو. وبذلك ساهمت تلك البطولة في الحفاظ على دماء الناس وأعراضهم وأموالهم، لان الردع كان يقتضي استسلام الجيش المقابل دون قتال.

خامساً: ان بطولة داحي الباب (ع) لم تكن حباً في أذى الناس ولم تكن قضية غريزية من أجل القتل والتدمير. بل كانت تلك البطولة مصممة على اساس ان ينتشر الخير والعدل بين البشر. وكانت شجاعة الامام (ع) حالة عقلية ألبسها الدين ثوب الكمال.

## 20 - يوم الغدير

وعلى ضوء كل ما عرضناه لحدّ الان عن حياة الامام (ع)، فان يوم الغدير كان منسجماً تماماً مع طبيعة مسار تلك الاحداث في المجتمع الاسلامي، ومتكاملاً مع تخطيط السماء.

ويوم الغدير هو يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة في السنة العاشرة للهجرة، وهو يوم نزول قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الرِّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...)<sup>21</sup>. حيث أمره تعالى ان يقيم علياً (ع) علماً للناس ويبلّغهم ما نزل فيه من الولاية وفرض الطاعة على المسلمين.

وكان نص قوله (ص) عندما قفل راجعاً من حجة الوداع في غدير خم على اطراف صحراء الجزيرة العربية في جموع المسلمين هو: «ان الله مولاي، وانا مولى المؤمنين، وانا أولى بهم من أنفسهم. فمن كنت مولاه فعليّ مولاه. اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبّه، وابغض من ابغضه، وانصر من نصره، واخذل من اخذله، وأدر الحق معه حيث دار، الا فليلبغ الشاهد الغائب».

ولم يتفرق الجمع العظيم حتى نزل الوحي بقوله: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً)<sup>22</sup>. فقال النبي (ص): «الله أكبر على اكمال الدين، واتمام النعمة، ورضى الرب برسالي، والولاية لعلي من بعدي»<sup>23</sup>.

21 سورة المائدة: آية 67.

22 سورة المائدة: آية 3.

23 «أسد الغابة» ج 3 ص 307، ج 5 ص 205.

## مؤهلات الامامة:

ولا شك ان تصريح رسول الله (ص) بتلك القوة، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، قائلاً: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» يعني انتقال جميع صلاحيات الولاية التي كان يتمتع بها النبي (ص) الى الامام (ع) عدا الوحي والنبوة. وهذا يعني استمرار المسيرة الاسلامية على نفس الخط المرسوم من قبل السماء، خصوصاً اذا تذكرنا تنبؤ النبي (ص) بقرب وفاته.

وانتقال جميع صلاحيات الولاية الشرعية في قوله (ص): «من كنت مولاه فعليّ مولاه» يعني ان عليّاً (ع) توفّرت فيه جميع الشروط التي تجعله صالحاً للامامة، وهي:

أولاً: امتلاكه (ع) امكانية هائلة على تحمّل مسؤولية الولاية الشرعية وادارة المجتمع الاسلامي بعد وفاة النبي (ص). فقد كان (ع) الأرض الخصبة التي بذر فيها المصطفى (ص) بذور الشجاعة والحلم والعلم والاخلاق والطهارة والعفة والزهد والتقوى والفصاحة. بحيث كان موقع علي (ع) من النبي (ص) موقع المرأة المتألّفة، والصوت القوي، والسيف المنافع عن الحق، والشخصية الاسلامية المثلى لامتدادات نبي الرحمة (ص). فكانت تلك الامكانية الهائلة موضع نظر المسلمين، والمشركين، والمنافقين على حد سواء. ولم يكن للآخرين مثيل أو شبيه لتلك الامكانية.

ثانياً: كان نمو قوة علي (ع) الاجتماعية نمواً طبيعياً، خصوصاً: في المعارك الطاحنة التي خاضها ضد الشرك، وفي حفظه القرآن المجيد وادراك باطنه وظاهره، مجمله ومبينه، محكمه ومتشابهه، ناسخه ومنسوخه، وتعليمه المسلمين، وفي زواجه بسيدة نساء العالمين (ع)، وفي توليته على المدينة من قبل رسول الله (ص) في غزوة تبوك، ودعوته الناس للاسلام في اليمن، وتبليغه سورة براءة في حج السنة التاسعة، ثم اعلان الولاية الشرعية الآن في غدیر خم. كل ذلك اعطى الامام (ع) قوة اجتماعية ودينية، تجعل انتقال الصلاحية الشرعية من النبوة الى الامامة انتقالاً طبيعياً لا يزلزل تلك الامة التي لا تزال حديثة عهد بالدين وبأحكامه وبعاداته ونظافته الاخلاقية.

وانتقال بهذا الحجم، وهو حجم النبوة التي يوحى اليها والامامة المعصومة التي لا يوحى اليها، يحتاج الى أمرين مترابطين أشد الارتباط، وهما:

أ - امضاء ذلك الانتقال من قبل صاحب الرسالة، وهو النبي (ص)، واعلانه الى الجمهور العريض والامة الواسعة. وقد حصل ذلك يوم الغدير بالخصوص.

ب - ان يكون الاعلان عن انتقال الصلاحية الشرعية في حياة رسول الله (ص) وقبل وفاته وعلى لسانه الشريف حتى يطمئن الناس لصلاحية ذلك الانتقال. وقد حدث كل ذلك امام الملا العام ايضاً.

ثالثاً: نضوج فكرة الامامة والولاية الشرعية في أذهان الناس، بحيث ان يوم الغدير - وهو يوم اكمال النعمة واتمام الدين- لم يحمل اعتراضاً وجيهاً حملة لنا التأريخ. بل كان زعماء قريش من أوائل من هتأ الامام (ع) بإمرة المؤمنين. خصوصاً وان رسول الله (ص) قد نعى نفسه بالقول: «اني اوشك ان أدعى فأجيب داعي الله». وفيه دلالة على ان انتقال الصلاحية الشرعية كان أمراً طبيعياً عند وفاة رسول الله (ص) وانتقاله الى عالم الخلود. ولكن نضوج فكرة الامامة في اذهان المسلمين لا يعني قبولها والتسليم بها دون معارضة وطموحات شخصية. وقد اشار تعالى: (وما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...)<sup>24</sup>.

### الصفوة الدينية:

وارتباط ولاية علي (ع) يوم الغدير بأهل البيت (ع) الذين وصفهم الامام (ع) نفسه بصفات مثل: «هم اساسُ الدين، وعمادُ اليقين...»<sup>25</sup> يدعوننا الى التوقف عند فكرة الصفوة الدينية. وفكرة الصفوة تعكس ظاهرة اساسية في الحياة الاجتماعية للمجتمع المدني المتحضر. فالجتمعات الانسانية - على اختلاف درجات تطورها - تحتاج الى مرجع تعتبره رمزاً للحياة الشرعية العامة وتجسيدا للقيم الاخلاقية والدينية. ولا شك ان الاختلاف في القابليات الذهنية والروحية للناس، والتباين في الاداء بين البشر يساعد على الركون الى نظرية الصفوة. ذلك لان الاختلاف الشاسع في درجات الاذعان أو التسليم تؤدي الى فوارق في النفوذ، والقيادة، والسلطة. فالانسان الذي ندعن له ونسلم بسلطته لخصيصة معينة لا نملكها، نعطيه الحق في الحكم والادارة الاجتماعية والدينية. ومن هنا كانت الصفوة الدينية قلةً منتخبةً انتخاباً سماوياً، ومتميزة عن بقية افراد المجتمع بسبب لياقة خاصة ورفعة مقام وسمو لا يصل اليها احد؛ فيها «يُستعطي الهدى ويُستجلى العمى»<sup>26</sup>. وكان علي (ع) وفاطمة (ع) وذريتهما هي تلك الصفوة التي كانت تشتمل على جميع الفضائل والخصال الجليلة. وعند التأمل في تلك الفضائل والخصال ندرك ان لتلك الصفوة السماوية سلطة اخلاقية وشرعية، وقابلية فريدة على ادارة الازمات الاجتماعية الكبرى. وكانت سلطتهم الاخلاقية غير محدودة بجبل مشخص أو زمن معين، بل كانوا مشاعل هداية لكل جيل. ولكنهم واجهوا ازمات اجتماعية خطيرة. فكان من

24 سورة آل عمران: آية 144.

25 «فجح البلاغة» خطبة 2 ص 35.

26 «فجح البلاغة» خطبة 144 ص 246.

الازمات التي واجهها الامام (ع): اجتماع السقيفة بعد وفاة رسول الله (ص) وتقرير الأمر لغير أهله، وخروج أم المؤمنين عليه في حرب الجمل، وعصيان والي الشام المخلوع معاوية بن أبي سفيان لاوامره (ع) ومقاتلته جيش الامام في صفين، وانشقاق مجموعة من جيشه (ع) عليه ومقاتلتها له في معركة النهروان. وتلك أزمات خطيرة للغاية عولجت بطريقة شرعية فائقة في الدقة والالتزام.

ولو ابدلنا الصفوة الدينية بنخبة اجتماعية دنيوية انصع صورها خلفاء قريش وبني أمية وبني العباس وغيرهم لاختلفت المعادلة الدينية، لان اولئك الخلفاء كانوا أناساً يرتكبون الاخطاء الاجتماعية والشرعية ولا يدركون مقاصد الشريعة. فهم قاصرون في الادراك والاداء عن الصفوة الدينية التي مُنحت اعظم نعم السماء وهي نعمة العصمة في ادراك الدين واداء تكاليفه الشرعية وارشاد الامة الى تكاليفها وواجباتها ومحرماتها.

### ولاية بحجم الدين:

وولاية بهذا الحجم لا بد ان تديرها الصفوة الدينية. خصوصاً وان من وظائفها: تبليغ احكام الشريعة وتطبيقها وتفسيرها، واداء وظيفة القضاء بين الناس وانزال العقوبات بالمخالفين، وعدالة توزيع الثروة الاجتماعية، والتنسيق بين العبادات والمعاملات، والدفاع عن الامة من اعتداءات العدو، ونشر الاخلاق والفضائل بين الجماعة، وتشجيع الناس على حرية التعبير عن آرائهم بما يخدم الاسلام والمجتمع الاسلامي. وبكلمة، فقد أريد لولاية علي (ع) يوم الغدير ان توحد الامة حول رمز عظيم من رموز الاسلام، ومركز شرعي يركن الناس اليه، ومحور يدلل على شخصية الدين كما عبّر هو (ع) عن نفسه بانه القرآن الناطق ويعسوب الدين. وكانت الولاية مكسباً خطيراً للجماعة في الوحدة والتعاون والاشراك جميعاً في محاربة الشرك والكفر، بلحاظ اختلاف المؤمنين في القابليات، والوظائف، والادراكات، والاداء، والاخلاقيات الاجتماعية والتعبدية. ولكن ذلك المكسب سرعان ما تحطم على اعتاب اجتماع السقيفة بعد وفاة النبي (ص) مباشرة.

فقد كانت مشكلة الخلافة بعد وفاة النبي (ص) من أهم عوامل الانقلاب التي عبّر عنها الذكر الحكيم: (... انقلبتُم على أعقابكم...) <sup>27</sup>. فقيادة المجتمع تُعدّ مشكلة خطيرة تحتاج الى تخطيط مسبق وعملية رسم خريطة عمل للمستقبل، ذلك لان اكتمال مباني الدين باكتمال نزول القرآن المجيد كان يفتح الباب للتأويل والتفسير والاجتهاد المبني على البناء الثقافي الجاهلي. وكان المجتمع الاسلامي الجديد بحاجة ماسة الى معرفة

---

27 سورة آل عمران: آية 144.

تفصيلية لمصاديق نظام الدولة في الحقوق والواجبات، والمسؤوليات الاخلاقية والشرعية، والعدالة الاجتماعية، وادامة الدفاع الابتدائي والحرب الهجومية من أجل نشر الاسلام في العالم.

لقد كانت الامة بحاجة الى وقت، في مرحلة ما بعد النبوة، لاستيعاب معاني القرآن الكريم وادارك السيرة النبوية الشريفة. وكان ذلك يتطلب فهماً لموقع الامة التاريخي من كل ذلك. فالدين انما جاء من أجل تقوية الضعيف، وتعليم الجاهل، وتمكين الايمان من احتلال موقعه الطبيعي في النفس الانسانية. فالاسلام لا يكتفي بمجرد انشاء كيان اجتماعي للمسلمين، بل يريد لذلك الكيان ان يستمر مع استمرار الحياة على الارض. وتلك مهمة صعبة لاشك، ولكن مهمة تملك كل مقومات النجاح والتسديد. ولذلك كان قرار يوم الغدير بتولية علي (ع) قراراً دينياً بالدرجة الاولى يتعلق بالتخطيط الاجتماعي لمرحلة ما بعد النبوة.

### الجسر الدائم بين النبوة والامامة:

والاقرار بالولاية لبطل المعني شاب مثل علي بن ابي طالب (ع) وهو في سن ينوف قليلاً على الثلاثين، له دلالات ينبغي ان تؤخذ في التخطيط الاجتماعي. وهو ان المخطط له، وهو المجتمع الاسلامي، كان يُراد له ان يعيش الحكم الشرعي ويتفاعل معه لعقود مديدة قادمة. وهي فترة تربية عظيمة لو قُدِّر لها ان تتم. واذ تصورنا ان هناك جسراً بين النبوة والامامة اعلنه رسول الله (ص) في ذلك اليوم القاطن تحت حر الهجير في مفترق طرق الصحراء على جمع عظيم من المسلمين وهو يوم الغدير، فان ذلك الجسر يعبر عن حالة من حالات الاندماج بين طرفين لا يمكن ان يكون أحدهما ضد الآخر. بمعنى ان الاندماج لا يتم بين المتناقضين ولا بين المتضادين، بل يتم بين المنسجمين اللذين يكمل أحدهما الآخر. وأحسن تعبير عن الحالة الاندماجية هو المقولة النبوية: «من كنت مولاه فعلي مولاه». فالمولوية هنا عملية استمرار لتطبيق الحكم الشرعي من المنبع السماوي «القرآن والسنة». وتلك المولوية المتصلة بعضها ببعض تعني قرارات شرعية متشابهة تحكم القانون الاجتماعي والاعراف والارتكازات العقلانية. واعلان الولاية يوم الغدير يعني ان هناك تناسقاً فكرياً بين النبوة والامامة. بمعنى ان النبي (ص) والامام (ع) كانا ينظران الى نفس الملاك والمصلحة، وكانا ينسقان لنفس التخطيط بعيد المدى للدين. ولذلك كان النبي (ص) على اطمئنان تام بصحة نقل المولوية منه (ص) بعد وفاته الى من هو أهل لتلك المسؤولية وهو علي بن ابي طالب (ع). وكان ذلك أمر الله سبحانه وتعالى. والاندماج بين النبوة والامامة يوم الغدير كان خاضعاً لثلاثة عوامل:

**الاول:** ان درجة الائتلاف - على سبيل الجواز - أو الاندماج كانت ضخمة جداً بحيث ان صلاحيات المولوية انتقلت بكاملها من النبي (ص) الى الامام (ع) عبر قوله (ص): «من كنت مولاه فعلي مولاه». أي إذا كنتُ انا قائداً لزيد، فإنّ علياً (ع) هو أيضاً قائداً بنفس الدرجة.

**الثاني:** ادامة ولاية العترة الطاهرة (ع) الى يوم القيامة. فالولاية الشرعية على المجتمع الاسلامي لم ولن تتوقف عند حد زمني معيّن، لأنّ أهدافها الدينية في تكامل الجماعة المؤمنة تبقى متجددة مع كل جيل من الأجيال الانسانية.

**الثالث:** ان فحوى القرار الذي يمكن ان يتخذه الامام (ع) لا يجيد عن فحوى القرار الديني السماوي. فشخصية علي (ع) تعلّمت من رسول الله (ص) جميع الكليات الدينية، ولا ريب في ذلك فهي شخصية غير منفصلة عن الصفوة الالهية التي اصطفها الله سبحانه لعباده.

## 21- وفاة رسول الله (ص)

لم تكن وفاة رسول الله (ص) لليلتين بقيتا من شهر صفر سنة إحدى عشرة للهجرة حدثاً مفاجئاً، وانما استمر المرض الذي اشتكى منه (ص) شكواه الذي توفي فيه اياماً عديدةً. وكانت تلك الايام الاخيرة المتصلة بالوفاة باعثاً على تهيئة الرأي العام بقرب وقوع الحزن الاكبر برحيل نبي الرحمة (ص) الى عالم الغيب والملكوت. وكانت تصريحاته (ص) الخاصة بابعاد من كان يطمح بالخلافة الى جيش أسامة، والاعلان لمن كانت له وصية أو عهد أو دين عنده (ص) واحباره به ليوقيهاه، وطلبه (ص) الدواة والكتف ليكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده ابداً، والطلب من علي (ع) بمواراته في رسمه عند موته (ص)، كلها تدلُّ على ان رسول الله (ص) كان قد تنبأ بوفاته تنبؤاً صادقاً. وهذا يعني ان الرأي العام كان يحس - مصداقاً ووجداناً - وجود خليفة كفوء يخلف النبي (ص) خلافة طبيعية بعد وفاته (ص).

وينقل لنا التاريخ المنصف دور علي (ع) خلال الايام الاخيرة من حياة رسول الله (ص) بأنه كان متميزاً وأخلاقياً. فقد قبل علي (ع) وصية النبي (ص)، والتزم أسراره، وقرر الجواز عدته وقضاء دينه. وفاضت روح البشير (ص) وهو في حجر علي (ع). فهو (ع) آخر من رآه وآخر من سمع وصاياه وتعليماته السماوية. كما كان رسول الله (ص) أول من رأى علياً (ع) بعد أبويه (رض) أم طالب وأبي طالب يوم ولد في الكعبة. وهكذا استمرت العلاقة التاريخية بينهما مدّة ثلاثة وثلاثين عاماً.

## مقتضيات الوفاة:

والموت قضية تكوينية تشمل جميع المخلوقات دون استثناء كما قال تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...) <sup>28</sup>. ولكن موت حامل الرسالة السماوية ومبلغها الصادق الأمين (ص) يعدُّ حدثاً عظيماً هائلاً، لأنه قد يولد شكوكاً حول الرسالة عند غياب قائدها. وقد تنبأ الذكر الحكيم بضخامة الحدث قبل وقوعه بسنوات، فقال: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...<sup>29</sup>).

وإدراكاً لآثار الوفاة، ينبغي التأمل في الأمر على أصعدة ثلاثة:

**الاول: الصعيد الغيبي:** وهو يعني توقّف الوحي توقفاً تاماً عن الاتصال بالارض، واكتمال مقاصد القرآن الكريم في هداية الانسانية المعذبة في ذلك الزمان بل وفي كل زمان حتى يحين يوم القيامة. وكان يعني توقف عصر النبوة، فقد كان محمد بن عبد الله (ص) خاتم انبياء السماء.

**الثاني: الصعيد الاجتماعي:** ويعكس انقطاع دور النبوة التي يوحى إليها، وبداية دور الامامة الموصى بها من قبل رسول الله (ص). فكان المفترض أن يختبر المجتمع عصراً جديداً في الادارة الدينية رائده علي بن أبي طالب (ع). وكان أول اختبار لعلي (ع) في ذلك هو كيفية الصلاة على الجسد الطاهر (ص)، فأشار (ع) عليهم بان رسول الله (ص) إمامنا حياً وميتاً، فاستجابوا له وصلّى الناس صلاة الميت عشرة عشرة. وكان الاختبار الثاني هو عندما حاض المسلمون في موضع دفنه، فقال (ع): «ان الله سبحانه لم يقبض نبياً في مكان الا وارتضاه لرمسه فيه، واني دافنه في حجرته التي قبض فيها». واستجاب له المسلمون في ذلك ايضاً. ولاشك ان هذين الاختبارين من الاختبارات الفقهية الشرعية التي لا ينهض باعبائها الا من كان كفوءاً لها.

**الثالث: الصعيد الشخصي:** وهو اختيار رسول الله (ص) الرفيق الاعلى على الرجوع الى الدنيا. وهو اختيار يثبت نبوة المصطفى (ص) وحبّه للقاء الله عزّ وجلّ.

وبطبيعة الحال، فإن رحيل النبي (ص) عن عالمنا الدنيوي هزّ التركيبة الاجتماعية للمجتمع الاسلامي في ذلك الزمان. فقد كان الناس حديثي عهد بالاسلام، ولم يفهموا معاني الموت وعلاقتها بالدين بعد. بل كانت الجذور القبليّة قبل الاسلام لا تزال سارية في نفوس بعض القوم ممن دخلوا الاسلام ظاهراً، وقلوبهم غير مهياًة للدين.

28 سورة آل عمران: آية 185.

29 سورة آل عمران: آية 144.

والأمر الأهمّ في حادثة الوفاة هو ان غياب شخصية بهذا الوزن وبتلك الاهمية الدينية كشخصية خاتم الانبياء (ص)، كان يهدد النظام الديني في المجتمع. ذلك ان دور النبوة الاجتماعي والديني لا يمكن تعويضه الا بدور مقارب من النبوة، حتى يستقر الدين في النفوس والقلوب استقراراً راسخاً الى اجل معلوم. فكانت الامامة الشرعية لعلي بن ابي طالب (ع) هي أقرب الادوار وأنسبها لسدّ الفراغ الذي تركه موت رسول الله (ص).

### الواجب الشرعي والواجب الاخلاقي:

قام بنو هاشم بتجهيز النبي (ص) ودفنه، بينما انشغل المسلمون في نفس الوقت بقضية الخلافة في سقيفة بني ساعدة. وقد كان من وظيفة الجماعة الاهتمام بجسد النبي (ص)، الا ان علياً (ع) مثّل دور الامة في هذا الواجب الكفائي، وأماط عنها العذاب الالهي. وهنا لا بد من التفكير بالواجب الشرعي والواجب الاخلاقي. فالواجب الاخلاقي أضيق دائرة من الواجب الشرعي. بمعنى ان الذي يعبد الله، لانه يؤمن بأنه أهل للعبادة، فانما يمثل الواجب الاخلاقي فضلاً عن الشرعي. بينما الذي يعبدُ الله امثالاً للأمر - مجرد الامتثال - فانما يمثل للواجب الشرعي فقط. والواجب الشرعي يدعو الانسان الى اعطاء الفقير بعضاً مما يملكه المعطي لا كل ما يملكه. ولكن الواجب الاخلاقي يدعو الانسان الى اعطاء كل ما يملكه للفقير. هنا انحصر الواجب الاخلاقي بالصفوة من الناس، بينما عمّ الواجب الشرعي كل مكلف.

ولو نظرنا الى سلوك القوم بعد وفاة النبي (ص) لرأينا أنه افرز ثلاث حقائق:

**الاولى:** لم يلتزم القوم بالواجب الاخلاقي في تجهيز النبي (ص) ودفنه، مع ان ذلك الواجب كان واجباً شرعياً كفائياً قام به بنو هاشم. الا ان الالزام الاخلاقي يدعو المؤمن الى التريث حتى يتم دفن الرسول (ص)، قبل التداول في أمر الخلافة.

**الثانية:** ان الواجب الاخلاقي، فضلاً عن الواجب الشرعي، كان يقتضي تنفيذ وصية رسول الله (ص) بحذافيرها دون ابطاء أو تأخير. ولكننا لم نرَ أثراً لذلك الواجب الاخلاقي عندهم.

**الثالثة:** ان الواجب الاخلاقي أعلى درجة من الواجب التكليفي، كما ذكرنا آنفاً. بمعنى ان الاول يؤدي خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى من دون تكليف، بينما يؤدّي الثاني بدافع التكليف والأمر المولوي. ولو افترضنا - نظرياً - ان عظم المصيبة التي حلّت بالمسلمين دفعتهم الى نسيان الوصية، لكان الأجدر بهم ان يقدموا علياً (ع) للخلافة على سبيل أداء الواجب الاخلاقي. وهو الذي شهد له التأريخ القتالي والعلمي بحسن الادارة والقتال والتفاني في سبيل الدين.

وعلى أي تقدير، فقد انكسر الواجب الاخلاقي والشرعي اللذان كانا يدعواهم الى رعاية حرمة رسول الله (ص) خلال احتضاره وبعد وفاته (ص). وهنا كان الحزن الاعظم حزناً مضاعفاً يصعب على الانسان احتماله.

### دور علي (ع) في اللحظات الصعبة:

الا ان الدور الذي أنيط بعلي (ع) كان متميزاً في النوعية والفعلية. فعلى مستوى النوعية، قبلَ علي (ع) وصيته (ص)، ووعده بانجاز عدته وقضاء دينه (ص). ولا يقوم بذلك العمل النوعي الا من كان مؤهلاً وصادقاً فيما يقول ويوعد. وعلى مستوى الفعلية، قام علي (ع) بكل ما يمكن أن يقوم به من الالتصاق بالنبي (ص) في الساعات الأخيرة وتغسيله والصلاة عليه ودفنه (ص). وكان جلوسه (ع) للمصيبة عملاً اخلاقياً ودليلاً على انه كان ترابياً مندكاً في الله سبحانه وتعالى. هذا في الوقت الذي كانت فيه مؤشرات تدلّ على ان القوم سوف يسارعون الى تقرير ولاية الأمر قبل ان يفرغ بنو هاشم من مصاب رسول الله (ص). ولذلك احدثت وفاة رسول الله (ص) أزمة اجتماعية لان المتغيرات التي أريد لها ان تحتلّ مواقعها قد أبدلت. فقد أريد للامامة الشرعية أن تكون خليفةً للنبوة، وهو ما أوصى به رسول الله (ص) لعلي (ع). ولكن الامامة أقصيت وجاءت محلها الخلافة الدنيوية التي لم تستند على وصية شرعية أو تبليغ سماوي ولم تكن تملك التحويل الشرعي لاصدار الاحكام والاورام والنواهي الشرعية.

### 22- ما بعد رسول الله (ص)

وما ان اغمض رسول الله (ص) عينيه وهو في حجر علي (ع) تاركاً هذا العالم الفاني حتى اجتمع الانصار والمهاجرون في سقيفة بني ساعدة للتداول في أمر الخلافة. وكان القوم نسوا تماماً وصية النبي (ص) لعلي بن أبي طالب (ع) خلال غزوة تبوك: «اخلفني في أهلي»، «اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي بعدي»، ويوم الغدير: «من كنت مولاه فعليّ مولاه». ولم يكن بين وصية رسول الله (ص) لعلي (ع) يوم الغدير بالولاية وبين وفاته (ص) الا سبعون يوماً. وتلك مدة زمنية قصيرة لا يمكن الادعاء فيها بنسيان خطبته (ص) في حجة الوداع ووصاياها فيما يتعلق بالولاية.

## خصائص اجتماع السقيفة:

وعلى اية حال، فان اجتماع السقيفة كان مؤتمراً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. فقد كان اجتماعاً لافراد جاءوا بدعوة - على الاغلب تأريخياً - من أجل مناقشة هدف محدد في فترة زمنية قصيرة جداً. وكانت آلية ذلك الاجتماع اعطاء صلاحية شرعية للبرنامج السياسي المطروح وهو خلافة رسول الله (ص)، وتناسي المرشح الاول في ذلك وهو علي بن ابي طالب (ع).

وكان ذلك الاجتماع يحمل خصائص خطيرة نعرضها فيما يلي:

**أولاً:** جمع اجتماع السقيفة كل الافراد الذين كانوا يطمحون سياسياً للامارة. والذي كان يوحدهم في الاجتماع ويجمع شملهم هو الأمل بالفوز بذلك المقعد الحساس، وهو مقعد الخلافة والامارة. ولذلك تكررت الفاظ تدل على ذلك الأمر، منها: «منا أمير ومنكم أمير»، و«نحن الامراء وانتم الوزراء»، و«هيهات لا يجتمع سيفان في غمد واحد» وغيرها من الالفاظ المشابهة. ولذلك فأنهم تناسوا خطبة رسول الله (ص) يوم الغدير القائلة بخلافة علي (ع). ولم يبرز في ذلك الاجتماع الصاحب ولا صوت واحد يذكرهم بما قاله رسول الله (ص) في غدير خم قبل شهرين وعشرة أيام فقط. وهذا يعني بالنتيجة ان اجتماع السقيفة كان يحمل رباطاً يربطهم جميعاً وهو رباط الطموح الشخصي للخلافة.

**ثانياً:** لم يكن اجتماع السقيفة اجتماعاً تشاورياً بين الخبراء يؤدي الى الخروج بمبنى عقلائي. ولو كان كذلك لاسترجعوا في اذعابهم وصايا رسول الله (ص)، واقرؤا ولاية علي بن ابي طالب (ع). ولكنه كان اجتماعاً من أجل السيطرة والتحكم بالمقدرات، ولذلك رُفِعَ السيف اكثر من مرة، وأُسكت أكثر من فرد، وتهاوت الافكار من اقصى الطموح بالخلافة للانصار الى مستوى: منا أمير ومنكم أمير، الى القبول بخلافة المهاجرين. وكان اجتماعاً يتناغم فيه زعماء قريش بعضهم لصالح بعض. وكان الحباب بن المنذر أشدّهم في المعارضة السلّحة وكذلك سعد بن عبادة. بينما أخذ الحسد بشير بن سعد مأخذه منه.

**ثالثاً:** لم يكن جدول اعمال السقيفة تبادل الآراء بحدوء من أجل الوصول الى حل لمشكلة غياب النبي (ص)، على افتراض انها مشكلة، بل ان الجو النفسي كان جو ارهاب وتحدي وعنف لفظي مثلته مخاوف الانصار من المصير القاتم على أحفادهم من خلافة قريش، وقول عمر لسعد بن عبادة: اقتلوه قتله الله، ونحوها. ولو كان اجتماعهم اجتماع دين وتقوى في الصورة والمحتوى، لتوصل الى اتفاق مبدئي في الالتزام بوصايا رسول الله (ص).

ولذلك كان أهم آليات التعامل خلال اجتماع السقيفة هو استخدام القوة والتهديد حتى يرضخ الطرف الآخر صاغراً لارادة الطرف الاقوى. وهنا كان الاتفاق نابعاً عن الاكراه والعنف، لا عن الاقناع والرضا. وقد انتصرت قريش وارغمت الانصار وغيرهم على قبول الواقع الجديد.

ثم استخدمت قريش شتى أساليب الضغط والاكراه ضد علي (ع) وبني هاشم من أجل حملهم على الرضوخ لمطالب الوضع الجديد. ولم يكن أمام الامام (ع) الا المقاومة السلمية ضدهم وهو القائل (ع): «اما والله لقد تقمصها فلان، وانه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحا...»<sup>30</sup>. ذلك انه (ع) لو استخدم اسلوب المقاومة المسلحة - وهو بطل الابطال- لدخل في حرب لا تحمل شروطاً موضوعية، وغير قابلة للتجانس مع مجتمع حديث عهد بالدين.

**رابعاً:** كان اجتماع السقيفة مؤمراً جمع اغلب اطراف الصراع الاجتماعي في عصر الاسلام عدا بني هاشم، فقد عزلوا تماماً من مجرى الاحداث. فقد حضر الاجتماع في سقيفة بني ساعدة: سعد بن عبادة شيخ الانصار، وبشير بن سعد من سادات الخزرج، وبعض رؤوساء الاوس كأسيد بن حضير، وغير الاوس كأبي بكر وعمر وأبي عبيدة من قريش. ثم اجتمعت بنو أمية الى عثمان، واجتمعت بنو زهرة الى سعد وعبد الرحمن بن عوف. وكان بنو أمية وبنو زهرة على وفاق مع ما حصل في السقيفة. وكان هؤلاء جميعاً يمثلون التيارات المختلفة في المدينة، وهي: تيار الانصار «الاوس والخزرج»، وتيار المهاجرين «قريش وبني أمية».

**خامساً:** التأم جمع السقيفة في يوم وفاة رسول الله (ص) وهو لا يزال مسجى لم يُوارَ الثرى بعد. وكان رسول الله (ص) قد هياً لأسامة جيشاً كبيراً قبل أيام من وفاته (ص). وكان في الجيش وجوه الانصار والمهاجرين. وتذكر كتب التاريخ ان النبي (ص) كان كثيراً ما يردد: «انفذوا جيش أسامة» ويدعو الانصار والمهاجرين الى الالتحاق بالجيش، حتى يستوسق أمر الخلافة لأهله. والسؤال الذي يطرح هو: كيف التأم جمع السقيفة من الانصار والمهاجرين، في الوقت الذي كان يُفترض فيه أن يكونوا خارج المدينة مع جيش أسامة؟ وهذا يجعل المرء يشكك في مصداقية اولئك النفر الذين يأمرهم النبي (ص) بالذهاب الى الجيش، فيتعللون بمختلف العلل للبقاء في المدينة بانتظار موت النبي (ص). فأين شرعية اجتماع السقيفة من كل ذلك؟

**سادساً:** أريد لاجتماع السقيفة أن يُؤسس لاجواء ذهنية اجتماعية لتقبل إبعاد الامام (ع) عن الخلافة والقبول بخلافة الخليفة الجديد. واجتماع من ذاك القبيل جمع تيارات سياسية واجتماعية تناست كلها وصية النبي (ص) في غدير خم.

سابعاً: لم تكن العلاقة المبدئية بين القوى الفاعلة في السقيفة علاقة انسجام وقرار بمبدأ واحد، فيما يخص الولاية على أقل التقادير. بل كان الفهم السائد في اجواء السقيفة يقتضي الصراع ثم كبح جماح الطرف الاضعف. ولم يكن يقتضي التفاهم على وصية رسول الله (ص) مثلاً، التي كانت أصل الانسجام الاجتماعي المفترض في المجتمع المتدين.

ومن الطبيعي، فان تجمع ذلك العدد من الطامحين للمقاعد السياسية في تلك البقعة الصغيرة وفي ذلك الزمن القصير الحساس، كان مدعاةً لصراع اجتماعي وعدم انسجام مبدئي حول من يخلف رسول الله (ص). فقد كان لكل طرف من تلك الاطراف اهداف ووظائف غير قابلة للاندماج مع وظائف الآخرين، في خليط سياسي مضطرب وغير متجانس. فبينما كان الامام (ع) يسعى من أجل ديمومة الشريعة وتطبيق احكام السماء في المجتمع الديني، كانت الاطراف الاخرى تحاول الفوز بالسلطة على حساب طموحات الدين.

وذلك التنافس المحموم حول السلطة كان يعبر عن حرب بين الضمائر أيضاً. ذلك ان الاهداف المتعاكسة تتصادم، ويحاول كل طرف انهاء طموحات الطرف الآخر في السلطة والرياسة. خصوصاً اذا كانت تلك المبادئ التي تؤمن بها تلك الاطراف متناقضة تماماً وغير قابلة للتعايش. ومن هنا نفهم ان الاحداث التي اعقبت وفاة رسول الله (ص) تشير الى أن الامور كانت تسير بهذا الاتجاه، فلم تكن هناك أهداف مشتركة تعمل على تحقيقها الاطراف المختلفة. فلم تكن - في الصورة الكلية - مساحة للتفاهم والمشاركة.

ثامناً: كان من اهداف المنافسة السياسية والصراع الاجتماعي محاولة الطرف القوي - في الدهاء - حذف الطرف الآخر من المعادلة الاجتماعية. ولذلك حاولت قريش حذف علي (ع) بكل ما يمثله من قيم ومبادئ وبطولة واخلاق وفهم للشريعة. لان متطلبات بقائها في السلطة كان يقتضي ذلك. والى ذلك أشار (ع) في احدي خطبه: «اللهم اني استعديك على قريش ومن أعانهم! فإنهم قطعوا رحمي وصعّروا عظيم منزلي، واجمعوا على منازعتي أمراً هو لي. ثم قالوا: ألا إن في الحق ان تأخذهُ، وفي الحق ان تتركهُ»<sup>31</sup>.

ولولا طموحات القوم السياسية لما اصبح الصراع ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية عند المسلمين. بل إنهم بفضل اجتماعهم في السقيفة وتغييبهم للقانون والشريعة، قد اوجدوا للصراع الاجتماعي بين الحق والباطل شروطاً موضوعية من أجل ان يستمر الى يوم القيامة.

واصبحت التركيبة الاجتماعية للمسلمين منذ واقعة السقيفة ولحد اليوم تركيبة مبنية على اساس صراع الضمائر بين الحق والباطل. فالضمير الشيعي الامامي اصبح مرهفاً يبكي مظلومية علي (ع)، ومظلومية الزهراء (ع) ومظلومية بقية الاوصياء (ع)، بينما بقى ضمير الاغلبية الصامتة جاهلاً بشروط الصراع وظروفه التاريخية.

31 «فتح البلاغة» - خطبة 172 ص 303.

ومن الطبيعي فان عملية الانتقال لا تكون شرعية الا ان يوصي الحاكم الاول وهو رسول الله (ص) الى الحاكم الثاني، أو على الاقل يُمضي انتقال السلطة الشرعية من يده الشريفه (ص) الى اليد الثانية. اما ان يجتمع القوم ويقررون، دون رضا رسول الله (ص)، فهنا يصبح الانتقال غير شرعي ولا ملزم. ولذلك فان الامام (ع) لم يبايع الخليفة الاول.

وانتقال السلطة الدينية التي خطط لها رسول الله (ص) لا يعني انتقال السلطة التنفيذية فقط، بل كان يعني انتقال السلطة التشريعية والقضائية أيضاً. وكل تلك السلطات مبنية على اساس القرآن والسنة الشريفه. ذلك ان العصمة في الدين تعكس القدرة الاستثنائية على ادراك ملاكات الاحكام، والمصالح والمفاسد، ادراكاً واقعياً حقيقياً. وهنا يكون الولي الذي اوصي له بالقول: «من كنت مولاه فعلي مولاه» قائداً حقيقياً في التنفيذ والتشريع والقضاء. خصوصاً وان الوضع الاستثنائي الذي كان يعيشه الاسلام من حيث وجود المنافقين، والذين دخلوا الاسلام حديثاً، والذين آمنوا ظاهراً ولم يؤمنوا باطناً، يتطلب تكثيف الإرادة الشرعية فيما يتعلق بالادارة الاجتماعية والسلطة الشرعية في يد وحدة قادرة على اداء تلك الوظائف مجتمعة. ولذلك خاطبهم الامام (ع) بعد انتهاء السقيفة: «...لنحس أحق الناس به، لأننا أهل البيت، ونحن أحق بهذا الأمر منكم. ما كان فينا الا القارىء لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله (ص)، المضطلع بأمر الرعية، المدافع عنهم الامور السيئة، القاسم بينهم بالسوية»<sup>32</sup>.

عاشراً: انتهى اجتماع السقيفة بانتصار قريش على الانصار، لوجهين:

أ \_ ارتكب الانصار أعظم الاحطاء السياسية عندما طرحوا آراءهم واهدافهم من البداية على طرف محنك سياسياً. ولم يتأنوا قليلاً ويتنظروا ما سيقول خصمهم.

ب \_ لم يكن اندفاع الانصار نحو الخلافة كاندفاع قريش القوي الشرس، وكان قول الانصار: منا أمير ومنكم أمير، أول الوهن وأول التنازل أمام خصم قوي. فاستغلت قريش ذلك وطالبتهم بأن يكونوا وزراء لقريش، وهي التفاتة سياسية وتوهين لم يحسب لهما الانصار حساباً. وهنا استخدمت قريش استراتيجية محكمة في التعامل مع الانصار، بينما اعتمد الانصار على مجرد الالفاظ والعبارات من اجل قطف ثمار الخلافة.

وعندما رأى (ع) ما حصل في السقيفة من انتخاب القوم لرجل من قريش، وابعاده (ع) عن حقه في الولاية، قرر ان يلتزم الصمت والصبر بعد ان بحّ صوته في نقاشهم ومحاججتهم، فكان (ع) يقول: «...فرأيت ان الصبر على هاتا احبى (ألزم). فصبرتُ وفي العينِ فدى، وفي الحلقِ شجاً، أرى تراثي نهباً...»<sup>33</sup>.

32 «الامامة والسياسة» - ابن قتيبة ج 1 ص 21 - 30.

33 «فحج البلاغة» - خطبة 3 ص 36.

## صيانة القرآن:

وكان عليه الآن ان يتجه فوراً لحفظ القرآن وصيانتته من يد التحريف. فقد رأى من الناس ما رأى عند وفاة النبي (ص). فأقسم (ع) ان لا يضع رداءه على ظهره حتى يصون القرآن. فلزم بيته حتى تأكد من جمعه واطمئنت نفسه الى ذلك.

وقد ورد في بعض المصادر<sup>34</sup> ان علياً (ع) لزم بيته بعد وفاة النبي (ص) مدة ثلاثة أيام وأقبل على القرآن يجمعه ويؤلفه، فلم يخرج من بيته حتى جمعه كله. وكتب على تنزيله الناسخ والمنسوخ منه، والمحكم والمتشابه.

والمستفاد من ذلك ان مكوث علي (ع) في بيته ثلاثة أيام كان من أجل التأكد من وجود القرآن مكتوباً بكامله. فيكون الأمر من قبيل مراجعة نصوص القرآن المجيد، والاشارة الى الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه. والا، فانه لو لم يكن مكتوباً لتعدرت كتابته في تلك الفترة القصيرة المضطربة. ويؤيده ان الصحابة كانوا متفقين على ان علم القرآن مخصوص لاهل البيت (ع)، كما نقل الشهرستاني في مقدمة تفسيره «مفاتيح الاسرار ومصابيح الابرار» بحيث اهم كانوا يسألون علياً (ع): هل خصصتم اهل البيت دوننا بشيء سوى القرآن؟

ومع ذلك فقد حُذِف اسم علي (ع) من باب جمع القرآن من مصادر مدرسة الصحابة عدا ما شذَّ كابن النديم في «الفهرست» والخوازمي في «مناقبه».

وعلى أي تقدير، فقد بقي القرآن الذي كتبه أمير المؤمنين (ع) باملاء رسول الله (ص) هو المصحف الحق الذي حفظ ما بين الدفتين، وكان مصداقاً لقوله تعالى: (إِنَّا لَنَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)<sup>35</sup>. وهناك دليان على ذلك:

**الاول:** ما رواه ابن طاووس (ت 664 هـ) في كتابه «سعد السعود» نقلاً عن كتاب ابي جعفر محمد بن منصور، ورواية محمد بن زيد بن مروان في اختلاف المصاحف: «ان القرآن جمعه على عهد ابي بكر (زيد بن ثابت) وخالفه في ذلك (أبي) و(عبد الله بن مسعود) و(سالم) مولى أبي حذيفة. ثم عاد عثمان فجمع المصحف برأي مولانا علي بن ابي طالب (عليه السلام). وأخذ عثمان مصاحف أبي، وعبد الله بن مسعود،

34 «الفهرست» - ابن النديم. ص 30. وايضاً: «الاتقان» - السيوطي عن ابن حجر. و«شرح الكافي» للمولى صالح المازندراني عن كتاب «سليم بن قيس».

35 سورة الحجر: آية 9.

وسالم مولى ابي حذيفة فغسلها (وفي بعض النسخ: فاحرقها). وكتب عثمان مصحفاً لنفسه، ومصحفاً لاهل المدينة، ومصحفاً لاهل مكة، ومصحفاً لاهل الكوفة، ومصحفاً لاهل البصرة، ومصحفاً لاهل الشام»<sup>36</sup>.

**الثاني:** ما ذكره الشهرستاني في مقدمة تفسيره برواية سويد بن علقمة، قال: سمعتُ علي بن ابي طالب (ع) يقول: ايها الناس، الله الله اياكم والغلو في أمر عثمان، وقولكم حرق المصاحف. فوالله ما حرقها الا من ملأ من اصحاب رسول الله (ص). جمعنا وقال: ما تقولون في هذه القراءة التي اختلف الناس فيها: يلقي الرجل الرجل فيقول قراءتي خيرٌ من قراءتك، وهذا يجزى الى الكفر. فقلنا بالرأي. قال: اريد ان أجمع الناس على مصحف واحد، فإنكم إن اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشدَّ اختلافاً. فقلنا: نعم ما رأيت. فأرسل الى زيد بن ثابت وسعيد بن العاص، قال: يكتب احدكما ويُملئ الآخر، فلم يختلفا في شيء الا في حرف واحد في سورة البقرة. فقال أحدهما: «التابوت» وقال الآخر: «التابوه» واختار قراءة زيد بن ثابت لانه كتب الوحي<sup>37</sup>. وفيما ذكره الشهرستاني دلالات:

**1 \_** ان علياً (ع) كان شاهداً ومشرفاً على كتابة القرآن في عهد عثمان، ولذلك فقد فصل في طبيعة الكتابة والاملاء والاخذ بقراءة زيد بن ثابت.

**2 \_** ان علياً (ع) اكد ان «زيد بن ثابت» كان كاتباً للوحي، كما كان أمير المؤمنين (ع) ذاته. ولعل في اختياره لكتابة الوحي مع علي بن ابي طالب (ع) مراداً، وهو ان لا تختلف الامة من بعد رسول الله (ص) في القرآن كما اختلفت في ولاية أهل البيت (ع). وقد أشرنا الى ذلك سابقاً.

وهكذا كان، فان علياً (ع) لم يألُ جهداً في حفظ القرآن وصيانته من يد التحريف. فكتب القرآن على عهد النبي (ص) وجمعه وتأكد من جمع السور والآيات بعد وفاته (ص)، ووضع قواعد النحو من أجل ان لا يختلط على الناس الملحون من الفصيح وكان تلميذه في ذلك أبا الاسود الدؤلي. وكان (ع) له فضل في وضع الإعراب والاعجام<sup>38</sup> عن طريق تلامذة الدؤلي وهما: يحيى بن يعمر العدواني قاضي خراسان، ونصر بن عاصم الليثي. وعلم (ع) الناس تفسير القرآن والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه. وكان من قبل قد قاتل المشركين ثم قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين من بعد، من أجل ان يبقى القرآن محفوظاً بين الدفتين الى يوم القيامة.

وإذا تصفحنا كتب الحديث في مدرسة الصحابة نجد ان هناك روايات متناقضة حول جمع القرآن. ولا نشك انما وضعت من أجل اعطاء فضل الجمع، لافراد كانت المصلحة السياسية تقتضي ان يفضلوا على

**36** «سعد السعود» - ابن طاووس ص 278.

**37** «مفاتيح الاسرار ومصايح الابرار» - الشهرستاني. المقدمة.

**38** الاعراب هو وصل الخط مضبوطاً بالحركات والسكنات. والاعجام هو تمييز الحروف المتشابهة بوضع نقط لمنع اللبس.

غيرهم. وقد حاولت تلك المصادر الغاء دور علي (ع) في كتابة القرآن وجمعه وصيانتة. وكان ذلك الامر من مقتضيات اجتماع السقيفة وما تمخص عنه من نتائج وآثار.

### 23- فاطمة الزهراء (ع)

لم يشك احد ممن صاحب النبي (ص) وعاصره فترة نزول الوحي في المدينة في عصمة فاطمة الزهراء (ع) بنت رسول الله (ص) وقرينة الامام أمير المؤمنين (ع). فقد لمس الناس دليلين من أقوى الأدلة على ذلك، أحدهما من القرآن المجيد والآخر من السنة الشريفة.

#### أدلة العصمة:

**1** \_ فالدليل القرآني يقول: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)<sup>39</sup>. والارادة الالهية هنا تدل على وقوع الفعل للشيء المراد. والمراد بأهل البيت (ع): رسول الله (ص) وعلي وفاطمة وذريتهما (عليهم السلام جميعاً)، كما ورد في الروايات الصحيحة المسندة.

**2** \_ الدليل الروائي، وهو قول رسول الله (ص): «فاطمة بضعة مني، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله عز وجل»<sup>40</sup>. ولا يمكن ان يقول النبي (ص) ذلك، لو كانت ابنته تقترب الذنوب. فلا يمكن ان يكون موزيها مؤذياً لرسول الله (ص) ما لم تكن منزّهة عن ارتكاب المعاصي. وهذا يثبت انها كانت لا تقترب من الذنوب مطلقاً. واذا اضفنا أمراً آخر، وهو علمها المطلق بالشرعة السماوية، لتبين لنا انها كانت امرأة كاملة في الفهم والاداء. وهذا هو المراد بعصمتها.

وبكلمة، فإن فاطمة الزهراء (ع) - من حيث القضية الفلسفية التكوينية - لم تكن تختلف عن قريناتها من النساء، حيث كانت تمر بمراحل الحمل والولادة والرضاعة. باعتبار ان تلك القضية قضية طبيعية تكوينية لا تتناقى مع الطهارة والكمال. ولكن ورد في الروايات ان مزاجها كان ثابتاً غير متغير كما هو المعهود في النساء، ولا يأتيها ما يأتي النساء عادة كل شهر، ولا تشارك نساء زمانها في مطلق الرغبات الدنيوية. وتلك مختصات في الطهارة والكمال احتصت بها (ع) دون غيرها من النساء.

39 سورة الاحزاب: آية 33.

40 «ينابيع المودة» ص 260.

## الوجود الاجتماعي:

الا ان المهم في شخصية فاطمة الزهراء (ع) هو وجودها الاجتماعي، الذي تمثل في الموارد التالية:

**1 -** ان فاطمة (ع) لم تنشأ في الحلية، وهي الاجواء التي اعتادت عليها النساء من حيث زينة الذهب والفضة والجواهر والحريير. وتلك الاجواء تغمر المرأة بمظاهر التزين والترقق، وتسلب منها الاهتمام بالأمور الروحية والتعبدية. بل نشأت (عليها السلام) في اجواء الوحي والنبوة والعلم والجهاد والحرب والمشقة. وهذا ما كان يميزها عن بنات زمانها.

**2 -** ان العصمة في الدين النابعة من قوله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)<sup>41</sup>، يضعها - اجتماعياً - في موضع القدوة التي يقتدي بها الناس. فهو يعدها ايضاً عن اهتمامات النساء الغالبة في زمانها. ويجعلها رمزاً للمرأة المتعبدة المتهجدة العارفة.

**3 -** قوة موقعها الديني كان يقتضي من اعدائها محاربتها بنفس الشدة التي حورب بها زوجها علي (ع)، ومن قبله رسول الله (ص). ولكن ظرف المواجهة كان مختلفاً وشرطها كان متبايناً.

## فدك: اغتصاب الحق من اهله

وانصبّ محور الصراع على قطعة خصبة من الارض بالحجاز وهبها لها رسول الله (ص) في حياته، اسمها فدك. وكان ذلك أمراً من الله بموجب رواية هذا نصها: «لما فرغ (ص) من خبير قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، فبعثوا الى رسول الله (ص) فصالحوه على النصف من فدك. فانزل الله تعالى على نبيه (ص): (فَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ...)<sup>42</sup>. ثم أوصى اليه ان ادفع فدكاً الى فاطمة (ع)، فدعاها رسول الله (ص) فقال لها: يا فاطمة، ان الله امرني ان ادفع اليك فدكاً. فقالت: قد قبلت يا رسول الله من الله ومنك. فلم يزل وكلاؤها فيها حياة رسول الله (ص). فلما ولي أبو بكر اخرج عنها وكلاؤها...»<sup>43</sup>.

فرفعت فاطمة (ع) الأمر الى الخليفة الاول مطالبة بفدك، باعتبارها ارضاً قد وهبها لها النبي (ص) في حياته، أي انها نحلة. وجاءت بشاهدين هما: علي (ع) وأم أيمن. ولكن الخليفة الاول رفض ذلك، مع ان الاصل في القضاء انه يجوز ان يقضي بيمين وشاهد.

41 سورة الاحزاب: الآية 33.

42 سورة الروم: الآية 38.

43 «اصول الكافي» - كتاب الحجّة ج 1 ص 543. و«الدر المنثور في التفسير بالمأثور» ج 4 ص 177. و«شرح نهج البلاغة» ج 16 ص

والبيّنة التي يطلبها القاضي - على الاغلب - انما يُراد منها التغليب في الظن على صدق المدّعى. ولاشك ان العدالة معتبرة في الشهادات لانها تؤثر في غلبة الظن. ولذلك اجيز للحاكم ان يحكم بعلمه من غير شهادة، لان علمه أقوى من الشهادة. ومن المستبعد ان فدكاً كانت قد وهبت لفاطمة (ع) دون علم الناس. اذن، فالبيّنة كانت موجودة، ولكن الارادة السياسية في رد الحق كانت غائبة.

وكان رد شهادة فاطمة (ع) بنت رسول الله (ص) أحد أخطر الاعمال وأجرأها بعد السقيفة. فكيف يمكن رد دعوى تلك المرأة الطاهرة (ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله)؟

وعندما فشلت دعوى النحلة عند الخليفة الاول، قامت الزهراء (ع) بالمطالبة بميراث رسول الله (ص)، باعتبارها البنت الوحيدة للنبي (ص). والاصل في ذلك ان فدكاً لو لم تكن نحلة قد وهبها لها النبي (ص) في حياته، فلا بد ان تكون إرثاً لابنته الوحيدة (ع). خصوصاً وان فدكاً كانت لرسول الله (ص) خاصة، لانه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب<sup>44</sup>. ولكن الخليفة احتج بأن الانبياء لا يورثون<sup>45</sup>، وهو مخالف لأصل القرآن الذي قال: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ...) <sup>46</sup>، وفي خبر يحيى بن زكريا قال: (فَهَبَ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ...) <sup>47</sup>، ونحوها.

وفشلت تلك الدعوى ايضاً في اقناع الخليفة الاول بأحقية فاطمة (ع) يارث أبيها. فتقدّمت ثالثة للمطالبة بسهم ذوي القربى مما بقي من خمس خبير. ولكن الخليفة اسقط سهم النبي (ص) وسهم ذوي القربى، ومنع بني هاشم من الخمس وجعلهم كغيرهم. وهكذا حرمت الزهراء (ع) من جميع حقوقها، ولم يُستجَب حتى لطلب من مطالبيها المدعومة بالحجج والادلة.

وعندها، أجهرت (ع) في معارضتها للنظام الجديد؛ وكانت خطبتها الشهيرة في مسجد رسول الله (ص) أقوى وثيقة تشهد بما جرى عليها وعلى زوجها (عليهما السلام). ثم قاطعت (ع) القوم حتى يوم استشهادها.

### فدك: بين الامتياز والحق

وبقيت «فدك» قضية تدك مضاجع الجميع. فقد ارادت سيدة النساء (ع) من اثاره قضية فدك من اغتصب الحق، وصدّ أهله عنه، وخالف النبي (ص) بعد وفاته، ونكث عهده.

44 «سنن ابي داود» ج 3 ص 218 رقم 3016.

45 «سنن ابي داود» ج 3 ص 198 رقم 2973.

46 سورة النمل: آية 16.

47 سورة مريم: آية 5 - 6.

ولكن - في الجانب الاقتصادي - وإن كانت فدك ملكاً لفاطمة (ع)، إلا أن خيراتها العظيمة كانت تصبُّ في صالح المسلمين خصوصاً الفقراء والمعوزين. بينما كانت مالكتها فاطمة (ع) لا تزيد في طعامها مع زوجها (ع) وذريتهما على خبز الشعير الحشن.

فهنا تخلَّت فاطمة (ع) عن امتيازات تلك الملكية لصالح الفقراء. ومن هنا كانت ملكية البتول (ع) لفدك تختلف عن الفكرة العامة للملكية. ذلك أن تلك الملكية نقلت حالة التملك من حالة «الامتياز» إلى حالة «الحق» فقط.

وبتعبير ثانٍ إن فاطمة (ع) لم تكن تفكر بامتيازات مادية تنهمر عليها من ذلك التملك، بل إن «حق الملكية» يعني أن لها أن تدير الثروة الناتجة من ذلك التملك بما يوحيه عليها ادراكها الشرعي للمصالح الاجتماعية للمسلمين. ولذلك نرى أن قبولها التملك من والدها (ص) كان في غاية الدقة. فقد قال لها رسول الله (ص): (إن الله امرني أن ادفع اليك فدكاً). فكان جوابها: (قد قبلت يا رسول الله من الله ومنك). فقد كان في تلك النحلة أو الهبة إيجاب وقبول؛ ولم تزد حرفاً على ذلك. وهذا يعني أنها كانت تعي المسؤوليات المترتبة على ذلك اللون من التملك.

وبتعبيرٍ ثالثٍ، إننا لو افترضنا أن فدكاً كان قد تملكها فرد من عامة الناس لاستفاد من امتيازاتها و ثرواتها استفادة شخصية. ولكن تملك المعصوم (ع) لفدك يعني أن في نيته توزيع الثروة الناتجة على فقراء المسلمين، بينما لا يفكر باقتناء شيء لنفسه. فهنا أصبح «الامتياز» من تملك فدك عند فاطمة الزهراء (ع) عائداً للامة بينما كان حقها في تملك الأرض أي «حق الملكية» هو حق كامل بمقتضى أحكام الشريعة.

## 24- حياة الامام (ع) في عهد الخلفاء

بقي الامام علي (ع) فاعلاً في الساحة الاجتماعية، على الرغم مما حصل في السقيفة. حيث كان القدوة في العبادة والزهد والتقوى والعلم الديني المستمد من علم رسول الله (ص). ويمكن رصد حياة الامام (ع) خلال تلك السنوات، الخمس والعشرين، ضمن أربعة محاور هي:

### أ - النشاط التعبدي:

وقد كان نشاطاً متميزاً في الصلاة والصيام وقراءة القرآن وملازمة الاوراد وقيام النافلة وصلاة الليل. وقد درج على تلك العبادة منذ أن كان صبياً يرافق رسول الله (ص). وكان زهده (ع) ملازماً لعبادته. فكلما ذاب في التفكير في حاله ومولاه عز وجل، كلما زهد في أموره الدنيوية.

## ب - العمل السياسي: التقية

استخدام الامام (ع) التقية كرخصة لمواجهة عصر ما بعد السقيفة. والى ذلك صرّح قائلاً: «والله ما منعي الجبن، ولا كراهية الموت. ولكن منعي عهد اخي رسول الله (ص) اذ قال: يا ابا الحسن ان الامة ستغدر بك، وتنقض عهدي، وانت مني بمنزلة هارون من موسى. فقلت: ماذا تعد اليّ يا رسول الله اذا كان ذلك؟ فقال: ان وجدت أعواناً فبادر اليهم وجاهدهم، وان لم تجد أعواناً فكفّ يدك واحقن دمك حتى تلحق بي مظلوماً». فكانت قلة الاعوان، وكون الناس حديثي عهد بالاسلام، من الاسباب التي دعت الى استخدام التقية كرخصة مؤقتة استمرت ربع قرن من الزمان.

وقد حفظت التقية التي طبّقها مولى الموحدين (ع)، التوازن التاريخي بين الحق والباطل. فلو لم يكن هناك من يحفظ الايمان والولاء في القلوب لتحقيق الهدف النهائي لاجتماع السقيفة، وهو حذف ائمة أهل البيت (ع) من الخارطة السياسية والاجتماعية للاسلام. ولكن الاستخدام الصحيح لتلك الرخصة، أدى فيما بعد الى إرجاع شعلة الولاء لأهل بيت النبوة (ع). فما ان زال الاكراه حتى عاد الحق الى نصابه.

## ج - العمل القضائي: الاستشارة

وكانت نشاطات الامام (ع) فيما يتعلق بالقضاء أقرب الى العمل الاستشاري منها الى العمل كمنصب. فقد كان (ع) - عندما يعجز القوم عن حل المشكلات الشرعية - يُستشار من قبل الخلفاء فيعطي رأياً الشرعية في ذلك. ولذلك كان ذلك العمل محدوداً بمحدود عجز القوم عن فهم الاحكام الشرعية، والا فهو لم يكن قاضياً زمن الخلفاء الثلاثة كما يتبادر الى الذهن أول مرة.

لقد كان أمير المؤمنين (ع) من أعلم الناس بعد النبي (ص). ولاجل «ما خصه الله تعالى به من فهم دقائق العلم بسرعة، احتاج أجلاء الصحابة لحله للعويصات»<sup>48</sup>. وتوزع نشاطه القضائي الاستشاري على مساحة واسعة من القضايا المتنوعة: كالحكم فيما يتعلق بالملكية، وما يتعلق بالقضايا الاخلاقية، والجنايات الاجتماعية، وفي قضايا العقائد ومبهمات الامور، والعبادات، وفي قضايا الحرب.

وكان (ع) سدرة المنتهى في القضاء الاسلامي. خصوصاً عندما كان القوم يعجزون عن استظهار الحكم فيظهر جهلهم للشرعية واضحاً للعيان، وعندما كانوا يخطأون أو يتسرعون في اصدار أحكام على غير الاسس الشرعية. وقد حوت بطون الكتب التاريخية والفقهية الكثير من الروايات في ذلك. ولا شك ان البعض من الناس يختبر الحاكم في المسائل الشرعية والاعتقادية، من أجل ان يرى مقدار علمه. وقد حصل مثل ذلك

48 «كفاية الطالب» - الشنقيطي ص 57.

كثيراً في مسائل العقائد والمبهمات من الامور. وكان (ع) رائداً في حلّ معضلاتها، بينما كان الآخرون يُظهرون عجزاً تاماً في ذلك. وسوف نقرأ الكثير من ذلك في محله من هذا الكتاب، باذنه تعالى.

ولما كان الاسلام ديناً جديداً يافعاً بالنسبة للاديان السماوية الاخرى، فقد كانت عملية اثاره الأسئلة المعقدة أو المخرجة واثارة الشكوك أمراً طبيعياً من قبل الاعداء. لذا كان تواجد الامام (ع) على الساحة الاجتماعية والفكرية، حاسماً من أجل ردّ تلك الشبهات والشكوك والأسئلة المعقدة. وبذلك حفظ الامام (ع) رسالة الدين من شبهات اولئك الاعداء.

#### د - العمل الكسبي: الزراعة

توفرت لدى الامام (ع) فرص كثيرة للثراء والتملك الواسع، ولكنه بقي متعففاً عن المال زهداً في الدنيا، يعمل في الزراعة. وكان ينفق مما يجنيه في الحراثة ونقل الماء وسقي الزرع، على الفقراء والمساكين. وكان لا يمد يده الى بيت المال، بل اذا لزمه في العيش الضيق والجهد أعرض عن الخلق وأقبل على الكسب والكدّ. وكان (ع) «يسقي بيده لنخل قومٍ من يهود المدينة، حتى مجلت يده، ويتصدق بالأجرة ويشدّ على بطنه حجراً»<sup>49</sup>.

وكل ما تملكه علي (ع) من الاراضي كان ينفق ريعه في سبيل الله على الفقراء والمساكين وابن السبيل. وعندما بُشّر بانفجار عين من الماء في أرضه، قال لهم بكل بساطة: «بشّروا الوارث»<sup>50</sup>. بمعنى لا تبشّروني بأمرٍ فانّ ودينا زائلة. فكلّ ملكٍ لا بد ان يرثه غير صاحبه.

وبكلمة، فان الامام (ع) بقي يراقب الوضع الاجتماعي الديني عندما سُلبت منه ادوات تحكيم الدين، يوم السقيفة. ولكنه (ع) وقف بوجه القوم عندما كان الحكم الشرعي يتطلب الوقوف، ونصحهم عندما كان الموقف يتطلب النصيحة. وفي غير ذلك، فان حكم التقية كان الغالب على الحياة الدينية والاجتماعية لمجتمع الثلث الاول من القرن الاول الهجري.

#### 25 - حكومة الامام امير المؤمنين (ع): النظام السياسي

بعد مقتل عثمان بن عفان، استلم الامام (ع) مقاليد الخلافة الشرعية على المسلمين. وقد امتازت حكومة الامام علي بن ابي طالب (ع) بخصائص جوهرية مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

49 «شرح نهج البلاغة» ج 1 ص 7.

50 «وسيلة المال». رواه الحضرمي باسناده عن جعفر بن محمد عن ابيه.

ويُتفق الكل على انه (ع) كان اكثر الناس الماماً بمعاني القرآن المجيد ومعالم السيرة النبوية. وكانت حكومته الرشيدة مبنية على اركان عشرة هي: 1- النظام السياسي. 2- النظام الاداري. 3- النظام الحقوقي. 4- القانون وحاكمية الشريعة. 5- النظام القضائي. 6- النظام الجنائي. 7- النظام العسكري. 8- النظام الثقافي. 9- النظام التجاري والاقتصادي. 10- بيت المال.

### شروط الحاكمية الشرعية:

وعندما نخوض في بحر العالم السياسي، فاننا نحتاج الى تحديد معنى الحاكمية الشرعية. وقد بين لنا الامام (ع) ذلك عبر تحديد أربعة مفاهيم:

### الاول: الإمرةُ التقيّة:

وهي الإمرةُ البرّةُ يعملُ فيها التقيُّ<sup>51</sup>، حتى يستقيم العدلُ في البلاد، وتظهر المودة بين الرعية والحاكم، ويُنتصفُ للمظلوم فيها من الظالم. وهي من خصائص المعصوم (ع) وحقوقه. فهو المسؤول عن ادارة أمور الناس وتنظيم شؤونهم.

### صفات الإمرة الشرعية:

وتلك الإمرة لها صفات، منها:

**1 -** منها الإمرة الشرعية ليست إمرة اكراه واستبداد، بل هي إمرة يطيعها المكلف بإيمان وإخلاص. لان تلك الطاعة نابعة عن معتقد قلبي وعقلي بالرسالة الدينية السماوية. وتعبير آخر ان الفيصل بين السلطة الدينية التي كان يمثلها الامام (ع)، وبين الإكراه والإستبداد والتسلط الذي كان يمثله الحاكم الظالم هو: «الشرعية». أي ان الدين يجعل للمعصوم (ع) حقاً شرعياً لادارة الناس، ويفرض - في الوقت نفسه - تكليفاً على المكلفين بالطاعة. بينما ينكر على الظالم ذلك الحق.

**2 -** ان السلطة الشرعية للامام أمير المؤمنين (ع) كانت قد مُورستْ مع قدرٍ شديدٍ من الوضوح في محاسبة الولاة والعمال على الامصار الاخرى. فكان (ع) يقول لأحد ولاته: «وان عملك ليس لك بطُعمة، ولكنه في عُنتك أمانة»<sup>52</sup>. فالإمرة الشرعية في عهد الامام (ع) كانت إمرة ذات طبيعة منظّمة، هي أقرب الى

51 «فحج البلاغة» خطبة 40 ص 83.

52 «فحج البلاغة» كتاب 5 ص 463.

طبيعة المؤسسة التي يُؤتمن عليها منه الى الطبيعة الفردية. وذلك الوضوح في الرؤية الحكومية، كان مدعاةً لاستتباب الأمن الاجتماعي وبناء الاستقرار النفسي للامة.

**3** \_ ان الامرة البرة هي سلطة شاملة لجميع السلطات الاجرائية في الحقوق والواجبات، ونظام العقوبات، ونظام الخراج، ونظام الجيش والأمن العام ونحوها. فهي إمرة لا تنحصر باصدار الأوامر بخصوص الثروة وتحقيق العدالة فحسب، بل تعني ايضاً معاقبة الجناة والمنحرفين. وبذلك تشمل الإمرة البرة السلطات الثلاث: التنفيذية والقضائية والبرلمانية (التوكيلية). ولعل الامام (ع) هو أول من خصص السلطة في التاريخ، بتلك الحصص الثلاث.

### الثاني: الحكومة

وإذا كان المفكرون يعنون بالحكومة: تضافر مجموعة من الافراد - وعلى رأسهم قائد - للقيام بمسؤولية الادارة الاجتماعية وممارسة السلطة. فعليهم الاقرار بان فكرة الحكومة لها مفاتيح ثلاثة، هي: المسؤولية، والنظام الهرمي، والادارة. نستلهم ذلك من أقوال الامام (ع). ففي المسؤولية قال (ع) موجهاً كلامه لأحد ولاته: «وان عملك ليس لك بطعمة، ولكنّه في عنقك امانة...»<sup>53</sup>. وفي النظام الهرمي قال (ع): «...انك فوقهم (يقصد الرعية)، ووالي الامر عليك فوقك، والله فوق من ولاك...»<sup>54</sup>. وفي الادارة، قال (ع): «...فانه لا يلد للناس من أمير برّ أو فاجر...»<sup>55</sup>.

### خصائص الحكومة:

وهنا لا يلد للحكومة من أربع خصائص، هي:

**1** - شرعية يمنحها الدين. ودليل تلك الشرعية يمنحها الله سبحانه، فيقول: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم...) <sup>56</sup>. ومفهوم قوله (ع) التالي يعدّ تفسيراً للآية الكريمة آنفة الذكر: «اما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله

<sup>53</sup> «فجح البلاغة» - كتاب 5 ص 463.

<sup>54</sup> م. ن. - كتاب 53 ص 547.

<sup>55</sup> م. ن. - حطبة 40 ص 83.

<sup>56</sup> سورة النساء: آية 59.

على العلماء، ألا يُقارَوا على كظَّةِ ظالمٍ ولا سَعْبِ مظلومٍ، لألقيتُ حبَلها على غارِها...»<sup>57</sup>. وتنبع أهمية «الشرعية» في السلطة من ان العمل الاجتماعي ينبغي ان يطابق الواقع الشرعي، وعندها يكون مبرراً للذمة أمام الله تعالى.

**2-** صناعة قرار على صعيد المصداق. ويمثله صريح قوله (ع): «اما الإمرةُ البرةُ فيعملُ فيها التقى، وأما الإمرةُ الفاجرةُ فيتمتعُ فيها الشقيُّ الى ان تنقطعَ مدئُهُ وتدركهُ منيَّتهُ»<sup>58</sup>. بمعنى ان الحكومة لا تثمر في عملها الاجتماعي، ما لم تُترجم النظريات التي يحملها الحاكم الى قوانين عملية صالحة.

وإذا كان القرارُ شرعياً وحاسماً، استتب العدل والامن في البلاد. فالمقياس في صناعة القرار هو ان يكون للدولة: شرعية معترفٌ بها، وقوة حسم. بحيث ان الحاكم لديه الكفاءة المطلوبة، ولا يخشى احداً الا الله. وبهذين العنصرين: الشرعية والحسم، استطاع الامام (ع) بناء دولة دينية مثالية ساهمت في تثبيت العدل بين الناس.

**3-** الكفاءة، أي قابلية الحكومة على سدِّ حاجات الامة من الضروريات. وتلك وظيفة أساسية، ولولاها لما كان لوجود الحكومة معنى. وقد قامت حكومة الامام (ع) بتحقيق العدالة الاجتماعية والحقوقية بين الناس. فقد كانت حكومة كفوءة قادرة على العناية بالفقراء والاغنياء على حد سواء، وقادرة على تثبيت اسس النظام في المجتمع الاسلامي.

**4-** التركيبة الجماعية للحكومة. ونعني بذلك ان تكون الحكومة ذات طبيعة تضافرية، يتضافر الجميع على تسديدها والعمل فيها. فاذا كان على رأس الحكومة امامٌ عادلاً كأمر المؤمنين (ع)، كان ولايته وعمله في الولايات والامصار اقرب الى العدالة والكمال. ونظرة فاحصة الى تركيبة حكومة أمير المؤمنين (ع) تُظهر لنا انها لم تكن حكومة (فرد) بل انها كانت حكومة «جماعة» مؤلفة من الامام (ع)، واداريين عُينوا من قبله (ع)، وقادة عسكريين، وقضاة، وجباة، ومستشارين.

### الثالث: العدالة

ان من آثار العدالة - في نظر أمير المؤمنين (ع) - وضع الامور في مواضعها، قال (ع): «... العدلُ يضعُ الامورَ مواضعها...»<sup>59</sup>.

57 «فحج البلاغة» - خطبة 3 ص 39.

58 م. ن. - خطبة 40 ص 83.

59 «فحج البلاغة» - باب المختار من حكمه (ع) رقم 427 ص 695.

والناس تختلف عن بعضها البعض في أمور مثل: الصفات الطبيعية في الذكورة والانوثة، والصفات الشخصية في القوة والضعف والذكاء والتخلف، والصفات الاجتماعية كالغنى والفقر والحرية والعبودية. وبموجب تلك الاختلافات، فإن احتياجات الناس تتفاوت. ولذلك، فإن أمر الاختلاف يستدعي من القائد الديني ان يكون عادلاً. أي ان يضع الامور مواضعها، كما صرح (ع) بذلك. فالغني لا يحتاج مالا، بل عليه ان يدفع الحق الى الفقير المحتاج؛ وهذا هو العدل لانه وضع الامور مواضعها. والعامل الماهر الكفوء يكافأ بأجر أعلى من العامل الخامل غير الماهر؛ وهذا هو العدل لانه وضع الامور مواضعها. والضعيف، قاصراً كان أو عاجزاً، ينبغي ان تُضمن معيشتهم؛ وهذا هو العدل لانه وضع الامور مواضعها. ومن قراءة تلك الامثلة نفهم، بان مقولة الامام (ع) تستدعي إعمال العقل ايضاً في تحقيق العدالة الاجتماعية.

### مبادئ العدالة:

وقد كان الامام أمير المؤمنين (ع) يسير على ضوء ثلاثة مبادئ في العدالة، هي:

**1** - ان الاختلافات التكوينية بين الافراد هي واقع حقيقي لا يمكن انكاره أو تجاهله. ولذلك فان فكرة «المساواة» تصدق فقط في نطاق معين. مثل «المساواة» في معونة المظلومين واسترجاع حقوقهم من الظالمين، و«المساواة» في العطاء من بيت المال لذوي الحاجة والمسكنة من الامة. وقد قال (ع) عند بيعة الناس له: «... فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية. لا فضل فيه لأحد على أحد»<sup>60</sup>.

فالمساواة في العطاء للفقراء تخلق جواً من العدل، وإحفاقاً للحق، وإنصافاً للمظلوم من ظالمه. وتلك العدالة في العطاء للفقراء تجبر الاختلافات التكوينية التي خلقت أصلاً من الافراد دون ارادتهم.

**2** - لما كان تحقيق المساواة العقلية بين الناس أمراً مستحيلاً، كان لا مفرّ للامام علي (ع) من تحقيق المساواة العرفية التي هي شكل من اشكال العدالة، عن طريق الانصاف والعدل والميزان، كما قال: «... ايها الناس، اعينوني على انفسكم، وإيم الله لانصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامتة، حتى اوردّه منهل الحق وإن كان كارهاً»<sup>61</sup>.

60 «شرح نهج البلاغة» ج 7 ص 36 - 37.

61 م. ن. - خطبة 136 ص 238.

وهو منسجم تماماً مع المفهوم القرآني القائل: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ...) <sup>62</sup>، (وَيْلٌٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزُّوهُمْ يُخْسِرُونَ...) <sup>63</sup>، (... وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ...) <sup>64</sup>، (... كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ...) <sup>65</sup>.

وتلك آيات شريقات اكدت على عدالة توزيع الثروة، وحسن تعامل الناس فيما بينهم على صعيد المال. وجعلت للفقراء حقاً محسوباً في أموال الاغنياء. بمعنى ان الشريعة لم تجعل للاغنياء الخيار في مساعدة الفقراء أو اهمال مساعدتهم، بل فرضت عليهم ذلك بقوة التشريع.

**3-** كما ان بيت المال يوزع الحقوق على الفقراء بالتساوي، فانه في الوقت نفسه يأخذ من أرباب العمل والزراعة: الخراج. وهي ضريبة تدخل بيت المال بضميمة موارد اخرى كالغنائم والصدقات والخمس ونحوها. وقد نهي (ع) زياد بن ابيه - عامله على فارس - عن زيادة الخراج، بقوله (ع): «استعمل العدل، واحذر العسف والحيف...» <sup>66</sup>.

وبطبيعة الحال، فان اشباع الفقراء وسدّ حاجاتهم لا يعني زيادة عددهم. فالصدقة لا تشجع الغني على الهبوط الى الطبقة الفقيرة من أجل استلام تلك العطية. والاهتمام بالفقراء لا يعني تقليل الانتاج الاجتماعي من زراعة وصناعة، بل العكس. فالمجتمع الذي يتساوى في الناس بسد رمقهم واشباع حاجاتهم، يكون أكثر انتاجاً وأوفر عطاءً في العلم والفضائل.

فالعدل اذن، هو:

أ - المساواة بين الفقراء في العطاء من بيت المال. ب - التكافؤ في الفرص. ج - المساواة أمام الشريعة او القانون عندما يتوحد الشرط والظرف. د - المفاضلة بين الناس على اساس العلم والايمان والتقوى. هـ - التفاضل بالاجور على مقدار العلم والجهد وقيمة العمل. وهذا هو جوهر فكرة وضع الامور مواضعها.

62 سورة النحل: آية 90.

63 سورة المطففين: آية 1 - 3.

64 سورة النور: آية 33.

65 سورة الحشر: آية 7.

66 «فحج البلاغة» - المختار من حكمه (ع) رقم 466 ص 702.

## الرابع: الحاكمية:

«الحاكمية» عنوان يعكس فكرة تقول بان الحاكم أمينٌ عامٌّ على أموال الناس وأعراضهم وأنفسهم. أي ان الحاكمية الشرعية تعني القدرة على إقامة العدل والحرية ورفع الفقر والجهل والانحطاط. ولا يمكن ان تكون الحاكمية شرعية، ما لم تستمد صلاحيتها الإلزامية من الدين. فلا نستطيع تصور دولة عادلة ونظام حقوقي واجتماعي وسياسي، لا يستند على مبادئ الدين واحكامه وتشريعاته، واحكام العقل ودلالاته. والحاكمية الشرعية هنا تعني القدرة التي يمتلكها الانسان كالمعصوم (ع) او من يوكله في هذه الحالة، على إدارة أمور الامة ضمن علاقات اجتماعية شرعية واضحة بين الحاكم والمحكوم. وعندها تكون الصفات الفاضلة امثال: الكرم والعلم والصلة والاعتدال والتعفف والرحمة والامانة وإقامة الدين، حتمية في ثبوت تلك العلاقات ورسوخها.

ونستنبط من نظرية الامام أمير المؤمنين (ع) في الحاكمية أفكاراً عظيمةً في ادارة الدولة. فهناك مجموعة من الصفات تُبلور معنى الحاكمية، منها: التواصل المشترك بين الوالي والامة: «فاذا أدت الرعية الى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها، عزّ الحقُ وقامت مناهج الدين»<sup>67</sup>، والانفتاح على الناس: «واخفض للرعية جناحك، وابسط لهم وجهك، وألن لهم جانبك...»<sup>68</sup>، وتطهير عيوب الناس لا كشفها: «فان في الناس عيوباً، الوالي أحقُّ من سترها... فانما عليك تطهير ما ظهر لك...»<sup>69</sup>، وتفضيل المحسن على المسيء: «ولا يكوننَّ المحسنُ والمسيءُ عندك بمنزلةٍ سواء...»<sup>70</sup>، وعدم الانقطاع عن الامة فترة طويلة: «فلا تُطوّلنَّ احتجابك عن رعيتك، فان احتجاب الولاة عن الرعية شعبةٌ من الضيق...»<sup>71</sup>، وحرمة سفك الدماء بغير حلّها<sup>72</sup>.

## آثار الحاكمية الشرعية:

وللحاكمية الشرعية التي يستعملها الحاكم على الامة آثار، نرتبها في النقاط التالية:

**1** - ان المهم في حُسن العلاقة بين الحاكم والمحكوم هي ان تُقيم احتمالاً عقلائياً، بتوجيه سياسة الحاكم نحو تحقيق آمال الرعية وتلبية طموحاتها في العبادة والعدالة وال عمران. واكثر ما يستفيد منه الحاكم هو

67 «فحج البلاغة» - خطبة 216 ص 419.

68 م. ن. - كتاب 46 ص 538.

69 م. ن. - كتاب 53 ص 549.

70 م. ن. - كتاب 53 ص 551.

71 م. ن. - كتاب 53 ص 549.

72 م. ن. - كتاب 53 ص 570.

وجود العلماء والحكماء في مجالسه العامرة بالعلم والادب والمعرفة. ولذلك كان الامام أمير المؤمنين (ع) يشير الى عامله في مصر بالاكتار من: «مدارس العلماء ومنافذة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك واقامة ما استقام به الناس قبلك»<sup>73</sup>. فالانفتاح على الامة بالمقدار الذي وضحته رسائل الامام (ع) وخطبه، يشخص للحاكم الهوية السياسية، وبيعة المشاكل الاجتماعية التي يواجهها الناس خلال ولايته (ع).

**2 -** ان انفتاح الامة على الحاكم سوف يزيح - الى حد ما - الحاشية الفاسدة التي تحاول عزل الحاكم عن مشاكل الامة، وتقوده نحو الانغماس في اللهو والمفسدة. والى ذلك يشير (ع): «... ولا تعجلن الى تصديق ساع، فان الساعي غاش، وإن تشبه بالناصحين...»<sup>74</sup>.

ولا شك ان الاغلبية من السعاة هم من حاشية السلطان ومريديه. والحاشية الفاسدة تقرب اصحاب المال والثروة نحو الحاكم، بينما تحاول ابعاد الفقراء والمساكين. ومن الطبيعي ان الانفتاح على الامة يحرم تلك الحاشية الفاسدة الكثير من الامتيازات التي يمكن ان تتمتع بها.

**3 -** ان مجرد الشعور بإمكانية الوصول الى الحاكم يمنح الامة شعوراً بالارتياح، ويجعلها تؤمن بان السلطة الشرعية ما هي الا وسيلة من وسائل الادارة الاجتماعية وحفظ حقوق الناس. وليست وسيلة من وسائل الامتيازات المالية والاقتصادية وتجميع الثروة عند الطبقة الحاكمة. والى ذلك أمر عامله بعدم الاحتجاج طويلاً: «... فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالامور. والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه...»<sup>75</sup>.

## 26 - النظام الإداري

انتخب الامام أمير المؤمنين (ع) مجموعة من أهل العلم والحكمة وصناعة القرار، ووضعهم على مسؤولية الحكومة في الامصار. فكانوا ثلثة طيبة من أصحاب الدين والعلم والتضحية والجهاد. وكانوا له عوناً على تحمل مسؤولية الولاية.

فقال (ع) يصف محمد بن أبي بكر واليه على مصر: «... فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً...»<sup>76</sup>. وقال (ع) في كتابه الى اهل مصر وهو يصف مالك الاشر: «اشد على

73 «فجح البلاغة» - كتاب 53 ص 552.

74 م. ن. - كتاب 53 ص 549.

75 «فجح البلاغة» - كتاب 53 ص 566.

76 م. ن. - كتاب 35 ص 519.

الفُجَّارِ من حريقِ النارِ...»<sup>77</sup>. وقال (ع) في مدح بعض اصحابه الذين استشهدوا في صفين: «ابن القوم الذين دُعُوا الى الاسلام فقبلوه، وقرؤوا القرآنَ فاحكموه، وهيجُوا الى الجهادِ فولُّوا وَكَهَ اللقاحِ (الناقة) الى اولادها، وسلبوا السيوفَ اغمادها...»<sup>78</sup>.

ونقصد بالنظام الاداري: القانون والجهاز اللذين ينظمان السلطة السياسية والمالية والقضائية والاجتماعية بعنوانها العام. فالنظام الاداري يكشف عن صلاحيات الولاة والمدراء والقادة في مختلف مجالات الحياة، ويفصح عن الزمامم الاخلاقية والدينية تجاه الامام (ع). فولاية هؤلاء - حتى لو كانت محدودة بحدود التخويل - كانت تقتضي مسؤولية قانونية وشرعية امام القائد العام وهو أمير المؤمنين (ع).

### شروط الوظيفة الادارية:

**1-** ان الوظيفة الادارية تتطلب انشاء قوانين تفصيلية متعددة في مجالات الحياة العامة. ولذلك نلاحظ ان اهتمام الامام (ع) بالادارة الاجتماعية، فيما يتعلق باختيار الولاة وارشادهم ومراقبتهم ومحاسبتهم والاستئناس باراء أهل العقول وأهل المشورة، كان اهتماماً شمولياً تفصيلياً. ونتيجة لذلك الاهتمام، ترك (ع) لنا هذا الكم الهائل من الرسائل والمواظ. فالادارة الاجتماعية الصحيحة هي التي تمتلك قوانين تفصيلية تشمل جميع جوانب الحياة الاجتماعية.

**2-** تتطلب الوظيفة الادارية الاجتماعية ايضاً القدرة على تعيين الولاة والموظفين وحكام المناطق وارشادهم ومعاقبتهم وعزلهم، اذا استدعى الأمر ذلك. فالموظف الادني في السلم الاداري ينبغي ان يخضع لأوامر الأعلى وهو الامام (ع)، وينفذها بدقة، ويكون مستعداً للمحاسبة وقت التقصير ومستعداً للدفاع عن نفسه، ومستعداً لتحمل العقوبة اذا ثبت التقصير.

**3-** الاصل في الوظيفة الادارية انها تتضمن جزءاً عظيماً من الحكم على الافراد واختيار الافضل، بما يشبه العملية القضائية. فاختيار من يحافظ على اموال المسلمين ويوزعها توزيعاً عادلاً بينهم يعكس قضية ذات طبيعة قضائية؛ واختيار قادة الجيش أو الشرطة للمحافظة على أمن البلاد ومحاربة العدو يتطلب قدرة تشبه القدرة القضائية في اختيار اصلح الافراد وأقربهم للتقوى والشجاعة؛ والاكتثار من مدارس العلماء في تثبيت أمور البلاد هو أقرب الى الحكم بالعلم والاستشارة ضد الجهل، بل ضد الاستبداد بالرأي.

77 م. ن. - كتاب 38 ص 522.

78 م. ن. - خطبة 120 ص 218.

4- ان من أهم شروط الوظيفة الادارية هو ان الذي يتسلم الادارة ينبغي ان يكون من أهل السوابق الحسنة والايمان والاخلاص. وليس للظالم أو من عمل له، فرصة أو مقعداً في الادارة العادلة. وقد لمسنا - تاريخياً - ان الظالم عندما تحمل المسؤولية الادارية، أفسد النظام. وتلك مشكلة خطيرة من مشاكل الادارة، ولذلك حذر الامام (ع) ولاته بالقول: «شُرُّ وزرائك من كانَ للاشْرارِ قبلكَ وزيراً، ومَن شركهُم في الآثامِ، فلا يكوننَّ لك بطانةً. فاهم اعوانُ الأئمةِ، واحوانِ الظلمةِ...»<sup>79</sup>.

#### خصائص الادارة عند الامام (ع):

وكانت لادارة أمير المؤمنين (ع) خصائص على درجة كبيرة من الاهمية، نجملها في الموارد التالية:

1- اسلوب اللامركزية ولغة الكليات: فقد عكست التوجيهات والتوصيات والرسائل التي كان يستلمها الولاة وعمال الدولة من أمير المؤمنين (ع) طبيعة اللغة الادارية. وكانت تلك التوجيهات حاسمة وقاطعة، ولكن كانت فيها عمومات وتخلو من التخصيصات على الاغلب. وهو أمرٌ يفتح الباب لإعمال العقل والفكر عند الولاة.

والامثلة على ذلك كثيرة، كقوله (ع): «ولَّ على أمورك خيرهم»<sup>80</sup> فهنا يكون الامرُ عاماً بتولية أفضل الناس (من كتاب الدولة) على الادارة، ولم يأمره بتعيين فلان أو فلان. وعندما يأمره (ع) بالقول: «دَع الإسرافَ مُقْتَصِداً»<sup>81</sup> فانه لا يشخص له موارد الاسراف، بل يرشده الى كليات عدم الاسراف لان فيه ضرراً على مصالح المسلمين والاسلام. وعندما يأمر عامله على البصرة بعدم مداهنة الاقوياء من أهل الثروة وحضور ولائتهم يقول (ع) له: «فما اشْتَبَهَ عليك علمُهُ فألفِظُهُ»<sup>82</sup>. هنا لم يخص له شيئاً، بل ارجعه الى كلية ما اشتبه عليه علمه من حلال أو حرام فعليه ان يرفضه ولا يأخذه. هنا ابْتُنيت التوجيهات والتوصيات في القوانين الادارية على صيغة الكليات العامة. وتُترك للولاة والقضاة ربط تلك الكليات بالمصاديق والجزئيات.

2- توزيع السلطة: ان حكم القانون لا يمكن ان يتم بصورته النهائية، ما لم يتم توزيع السلطة بين شريحة واسعة من الناس. فلا بد من تعيين الكُتّاب والرؤوساء: «واجعل لرأس كلِّ أمرٍ من أمورك رأساً

79 «فتح البلاغة» - كتاب 53 ص 550.

80 «فتح البلاغة» كتاب 53 ص 560.

81 م. ن. - كتاب 21 ص 477.

82 م. ن. - كتاب 45 ص 530.

منهم»<sup>83</sup>. والعيون: «وإما بعد، فإن عيني بالمغرب كتب اليّ يُعلمني انه...»<sup>84</sup>. والمستشارين: «ولا تُدخلنّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل...»<sup>85</sup>. والعلماء والحكماء: «واكثرُ مُدارسة العلماء، ومنافة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمرُ بلادك...»<sup>86</sup>. والنخبة الاجتماعية: «... ثمّ الصق بذوي المروءات والاحساب، وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة...»<sup>87</sup>. والوزراء: «شرُّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكوننّ لك بطانة»<sup>88</sup>. والقضاة: «ثمّ احترّ للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك...»<sup>89</sup>. وقادة الجيش: «فول من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله وإمامك...»<sup>90</sup>.

فالحكومة اذن، كانت جهازاً واسعاً لاصدار القوانين، ومراقبة تنفيذها من قبل القائد، ومحاسبة المقصرين في تنفيذها. وعندئذ توسّعت الحكومة - بموجب هذا الفهم - الى جميع الجهات الاجتماعية، وتوزعت السلطة على اكبر عدد ممكن من الافراد. وهذا المنحى في دولة الامام (ع) سبق كل النظريات في الدولة الحديثة التي دعت الى فصل السلطات الثلاث: القضائية والتنفيذية والتشريعية.

وبذلك حققت الادارة الاجتماعية في عهد الامام (ع) كل ما ارادت السلطات الثلاث تحقيقه، وهي: حل الخصومات بين الافراد عبر القضاء، وادارة الثروة الاجتماعية وحسن توزيعها عبر جمع الضريبة (الخراج والصدقات والخمس والغنائم ونحوها)، وتثبيت الامان الاجتماعي والغذائي العام، والدفاع عن الدولة الشرعية، ومراقبة وضع السوق التجاري.

**3-** ان محاسبة الموظفين لم تكن محاسبة رياضية تتعلق بالارقام ومقدار المال المسروق، بل كانت محاسبة اخلاقية. فحتى لقمة حرام واحدة تبرر عزل ذلك الوالي الذي عينه الامام (ع). يقول (ع) محاسباً أحد عماله: «... كيف تُسيغُ شراباً وطعاماً، وانت تعلم انك تأكل حراماً، وتشرب حراماً، وتبتاع الإماماء وتنكح النساء من أموال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين...»<sup>91</sup>. وفي كتابه للمنذر بن الجارود: «إما بعد، فإن صلاح

83 م. ن. - كتاب 53 ص 560.

84 م. ن. - كتاب 33 ص 517.

85 م. ن. - كتاب 53 ص 550.

86 م. ن. - كتاب 53 ص 552.

87 م. ن. - كتاب 53 ص 554.

88 م. ن. - كتاب 53 ص 550.

89 م. ن. - كتاب 53 ص 556.

90 م. ن. - كتاب 53 ص 550.

91 «فتح البلاغة» - كتاب 41 ص 526.

أبيكَ ما غرَّبني منك، وظننتُ أنَّكَ تتبِعُ هديهُ، وتسلكُ سبيلهُ، فإذا انتَ ممَّا رُفِّيَ إليَّ عنكَ، لا تدعُ لهواكَ انقياداً...»<sup>92</sup>.

**4-** كان أمير المؤمنين (ع) قوياً في الإدارة والفكر الإداري. فقد وضع أصولاً محكمة لعلم مهم، وهو علم إدارة المجتمع على ضوء الدين والعقل.

فاهتم (ع) بشخصية المدير، ووضع له ضوابط اخلاقية مثل: التقوى، والامانة، والمنشأ الصالح، والكفاءة الادارية، والعلم، وقوة الرأي.

وأهتم (ع) أيضاً بإليات الإدارة، وهي:

أ - استشارة الحاكم لاهل الخبرة والاختصاص، ووضع قاعدة: «من استبدَّ برأيه هلك»<sup>93</sup>.

ب- تنمية النخبة الاجتماعية المؤمنة، التي كانت تعبّر عن مرآة مصغرة للحالة الاجتماعية الكبرى.

ج- لغة الكليات التي استخدمها أمير المؤمنين (ع) في إدارة المجتمع والافراد، كانت موفقة في تثبيت النظام اللامركزي في الدولة. ولذلك، فاننا نستطيع، باطمئنان، أن نطلق على حكومة الامام (ع) اصطلاح حكومة القانون ودولة الشريعة.

## 27- النظام الحقوقي (المالي)

يبقى المال، والنقد بالخصوص، من الوسائل المهمة في تشخيص تركيبة المجتمع. ولذلك حاولت بعض القوى الاجتماعية - مثل بني امية- ان تجعل الفارق في الدخل الشخصي بين طبقة واخرى فارقاً شاسعاً. حتى يتسنى لها استثمار الثروة المكدسة في طبقتها من أجل حيازة السلطة وامتيازاتها السياسية والاجتماعية. ولذلك أشاعت تلك القوى فكرة خاطئة مفادها ان الدخل الشخصي يحدد الطبقة الاجتماعية ويحدد ايضاً من الذي يحكم!! فاذا كان الدخل قليلاً، هبط الانسان الى الطبقة المحكومة. واذا كان كثيراً هائلاً صعد الى الطبقة العليا الحاكمة.

ولكن الامام أمير المؤمنين (ع) حارب تلك الفكرة، واعتبرها طريقة من طرق الجاهلية للوصول الى السلطة. واتخذ خطوات مهمة في هذا الشأن.

92 م. ن. - كتاب 71 ص 594.

93 «فحج البلاغة» - المختار من حكمه (ع) رقم 201 ص 645.

## خطوات الامام (ع) في العدالة الحقوقية:

فمن الخطوات التي اتخذها (ع) اعتماداً على مبادئ الاسلام:

**1-** ساعد الفقراء من بيت المال. فقال (ع) مخاطباً عامله على مكة: «وانظر الى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه الى ما قبلك من ذوي العيال والمجاعة، مُصيباً به مواضع الفاقة والخلاّت. وما فَضَّلَ عن ذلك فاحمله الينا لنقسمه فيمن قبلنا»<sup>94</sup>.

**2-** اشاع فكرة الاسلام القائلة بأن الفقر الاختياري صفة من صفات الأنبياء والأولياء والصالحين. فقال (ع) عن نفسه: «...ولكن هيهات ان يغلبني هواي، ويقودني حشعي الى تحيّر الاطعمة - ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع - أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباداً حرّى...»<sup>95</sup>.

**3-** ألزم الأغنياء - بقوة الاخلاق والسلوك- على دفع حصة الفقراء. قال (ع): «إنّ الله سبحانه فرض في أموال الاغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقيرٌ إلا بما مُتّع به غنيٌّ، والله تعالى سائلهم عن ذلك»<sup>96</sup>.

**4-** جعل الدخل الشخصي مقياساً للمساعدة. أي ان قلة الدخل تُجبر بسهم من بيت المال. فعندما تتجمع الحقوق المالية الشرعية في بيت المال، فالها توزع على الاصناف الثمانية التي ذكرتها آية الصدقات (سورة التوبة: آية 60) وهم الفقراء، والمساكين، والعاملين على جباية الزكاة، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله تعالى، وانباء السبيل. والخمس (سورة الانفال: آية 41) يوزع على آل الرسول (ص) من ايتام ومساكين وانباء سبيل. ولاشك ان جميع تلك الاصناف التي ذكرت في الآيتين هم من ذوي الدخل القليل.

وهذا يعني ان قلة دخل الفرد تُجبر بكمية من المال يدفعها بيت المال لتلك الاصناف من أهل الحاجة. وبذلك تستفيد تلك الشرائح المتفاوتة الدخل من أموال بيت المال، كل حسب حاجته. وبذلك صممت حكومة الامام (ع) للناس مجتمعاً متكافئاً نظيفاً أشبع فيه الفقير، وأكرم فيه الغني المؤمن، وحوسب فيه الظالم مهما كان حجم ظلمه.

**94** «فتح البلاغة» - المختار من كتبه (ع) رقم 67 ص 589.

**95** م. ن. - المختار من كتبه (ع) رقم 45 ص 532.

**96** م. ن. - المختار من حكمه (ع) رقم 319 ص 672.

## أ \_ السياسة المالية:

وكانت السياسة المالية في عصر الامام (ع) تستند على عدة اسس، منها:

**الاول:** توزيع ما كان يتجمع في بيت المال من النقدين - الذهب والفضة- على الموارد التي ذكرتها الآية 60 من سورة التوبة، وكان اغلبها من الصدقات. وكانت سياسة الامام (ع) كنس بيت المال كل يوم جمعة والصلاة فيه ركعتين والقول: «ليشهد لي يوم القيامة»<sup>97</sup>.

**الثاني:** توزيع الفيء - من مواد نقدية او عينية - على المقاتلين، أو الذين يحضرون القتال ويقومون بشؤون خدماتية للجيش. وكان عددهم ضخماً.

وكانت الثروة العينية الاوسع المتمثلة بزكاة الغلات والانعام توزع على الفقراء أيضاً. وتلك السياسة كانت تمثل سياسة في الضمان الاجتماعي لجميع الافراد في المجتمع الاسلامي.

ولاشك ان مقدار تلك الثروة المجتمعة في بيت مال المسلمين كان ضخماً. فكان يتطلب وجود نوع من الادارة، لتنظيم صرف ذلك المال وحسن توزيعه، من قبيل وجود الكتّاب والدفاتر التي تُدرج فيها اسماء الافراد الذين يستلمون من بيت المال.

خذ مثلاً على ضخامة العملية الادارية في التوزيع. فقد كان جيش الامام (ع) الذي شارك في صفين قد بلغ أكثر من مائة وعشرين الف مقاتل. وهذا العدد الضخم كان يحتاج الى سجلات بأسمائهم ومقدار عطاياهم.

**الثالث:** ضبط السوق التجاري عبر حثّه (ع) الباعة وأصحاب الحوانيت على عدم الغش، والتحكم بالمكيال الحق، والمحافظة على الاسعار، ومحاربة الاحتكار. فقد كان (ع) يكثر المرور على سوق الكوفة فيحثّ الباعة على ضبط الميزان وعدم الغش. ولا شك ان السوق التجاري في الكوفة - عاصمة أمير المؤمنين (ع) - كان فرعاً رئيسياً من فروع مجرى النقد في المجتمع.

**الرابع:** محاربة الربا، الذي حرمه الاسلام عبر قوله تعالى في كتابه المجيد: (... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا. وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا...)<sup>98</sup>، في الوقت الذي شجع فيه على الكسب الحلال في الزراعة والصناعة والتجارة والخدمات.

ولذلك كان الامام (ع) يدعو التجار الى التفقه في احكام التجارة، فيقول لهم: « مَنْ اتَّجَرَ بِغَيْرِ فِقْهِ فَقَدْ ارْتَطَمَ فِي الرِّبَا »<sup>99</sup>.

97 «شرح نهج البلاغة» ج 2 ص 199.

98 سورة البقرة: آية 275.

## ب - الدخل الشخصي:

كان الوارد الشخصي للمعيل في عصر الامام (ع) يُكْتَسَبُ عن طرق متعددة، منها: العمل اليدوي، وتملك الارض، والتجارة، ورأس المال الذي كان يقوم بتشغيله التاجر من أجل جني الربح. وهذا يعني ان كسب المال كان ممكناً عن طريق ثلاثة موارد:

**الاول:** الأجر الناتج عن العمل وبذل الجهد.

**الثاني:** الربح الصافي الناتج عن تشغيل رأس المال في التجارة.

**الثالث:** تأجير الاراضي الزراعية المملوكة من قبل المالك الحقيقي.

اذن لدينا ثلاثة عوامل منفصلة، تتضافر احياناً من أجل تحقيق دخل شخصي معقول، وهي: الاجارة، والتجارة، والملكية. وكلها تولّد رصيماً مالياً يتفاوت حجمه من انسان لآخر.

وصورة الوضع الاجتماعي قبل استلام أمير المؤمنين (ع) الحكم كانت تكشف عن وجود نظام طبقي، ساهمت فيه عطاءات الخليفة السابق في تنمية الطبقة المالكة من بني امية. فكان هناك افراد اغنياء مثل مروان بن الحكم حيث كانت عطاياه من قبل الخليفة الثالث لا تقلّ عن مئات الالوف من الدنانير الذهبية. والزيبر بن العوام الذي خلّف عند موته خمسين الف دينار ذهب والى الف أمة. وطلحة بن عبيد الله وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار ذهب.

وكانت هناك طبقة مسحوقة من الاجراء والعبيد لا يزيد دخل الفرد منها على بضعة تمرات في اليوم الى عدة دراهم. ومنهم اغلب اصحاب الامام (ع) كسلمان، والمقداد، وعمار، وأبي ذر وغيرهم.

ومن هنا نجد أمير المؤمنين (ع) يشتكي بالقول: «اضرب بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ إِلَّا فَقِيراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَلَ نِعْمَةِ اللَّهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلاً اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللَّهِ وَفِراً، أَوْ مَتَمَرِداً كَأَنَّ بَأْذَنَهُ عَنِ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقِراً»<sup>100</sup>. فلا ريب في أن يوصي الامام (ع) مالك الاشر بالفقراء، فيقول: «... ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمن...»<sup>101</sup>.

99 «فحج البلاغة» - المختار من حكمه (ع) رقم 437 ص 697.

100 «فحج البلاغة» - خطبة 129 ص 230.

101 م. ن. - كتاب 53 ص 563.

## ج - ميزانية الدولة:

لا تستطيع الحكومة أن تؤدي وظائفها ما لم تمتلك سياسة واضحة المعالم فيما يتعلق بالواردات والمصروفات. ويطلق على ذلك عنوان: «ميزانية الدولة». فاذا اتخذ قرار بايواء كل يتيم وأرملة وسد حاجتهما مثلاً، فلا بد من حساب إجمالي اليتامى والأرامل، ولا بد من حساب ما يدخل بيت المال من أموال، ثم تقسيم ذلك على اساس الحصص. فيكون لكل يتيم حصة، ولكل أرملة حصة. وأقل الحصة، على مقتضى الروايات<sup>102</sup> خمسة دراهم أو نصف دينار ذهباً. وهذا الامر لا يكتمل ما لم يُعلم الحد الأدنى لرغبات الناس ونواياهم في دفع الحقوق الشرعية.

إذن، اذا ربطنا سياسة الامام أمير المؤمنين (ع) في اشباع الفقراء مع رغبات الناس القوية في دفع الزكاة، استنتجنا بأن عصر الامام (ع) كان عصراً مزدهراً بالعدالة والانصاف. والميزانية الرشيدة لحكومة أمير المؤمنين (ع)، كانت قد سددت ذلك الازدهار.

فقد كانت سياسة أمير المؤمنين (ع) تصرح بأن لا يبقى مالٌ في الخزينة (بيت المال)، الا ويوزع على الفقراء والمحتاجين. ولم يكن ذلك اسرافاً أو تبذيراً للمال، بل العكس. ذلك لأن الفقر والجوع كانا منتشرين في أرجاء البلاد. فكان على بيت المال ان يتصرف بهذا الاسلوب الرحيم.

وبتعبير آخر ان سياسة أمير المؤمنين (ع) المالية لم تعر للرصيد النقدي في الخزينة أهمية تُذكر. بل كانت سياسته (ع) كنس بيت المال كل يوم جمعة والصلاة فيه ركعتين والقول: «ليشهد لي يوم القيامة» كما ذكرنا ذلك سابقاً. وهذا يعني ان الاولوية كانت موجهة لسد حاجات المعوزين والفقراء. وهذا هو سر قوة دولة أمير المؤمنين (ع). فما فائدة الرصيد النقدي القوي للدولة اذا كان الناسُ يتنون من الجوع؟

## 28 - القانون وحاكمية الشريعة

كانت حكومة الامام (ع) حكومة تشريع وقانون. والمقصود من ذلك، انها نظّمت العلاقات المالية والتجارية والحقوقية والانسانية بين الناس على اساس أحكام شريعة سيد المرسلين محمد (ص). فعلى المستوى القضائي والمخاصمات بين الافراد، وقف رئيس الدولة على قدم المساواة مع مواطن عادي امام القضاء، من أجل حل خصومة. وتشير الروايات الى وقوف الامام (ع) جنباً الى جنب مع يهودي امام شُريح القاضي مطالباً بدرعه<sup>103</sup>. وكانت تلك حادثة استثنائية، بكل المعايير. ولم تكن بلاد روما ولا بلاد

102 «الحاسن» - الرقي ص 319.

103 «الغارات» - الثقي ص 75.

فارس ولا قريش لتسمح لسادتها وأمرائها بالوقوف أمام القضاء. ولكن علياً (ع) وقف يداعي بدرعه أمام قاضي الدولة. وقد تعلمت أوروبا الحديثة من الامام علي (ع) فكرة فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية، وتعلمت منه (ع) أيضاً ادارته للدولة بما نفعها في بناء الدولة الحديثة.

وعلى المستوى الجنائي، كانت العقوبة المنصوصة اذا ازدادت على المعاقب أقتص من المعاقب. وقد حصل ذلك، عندما غلط قنبر فضرب الجاني ثلاثة أسواط زائدة، فاقتص الامام (ع) من قنبر ثلاثة أسواط<sup>104</sup>. وعلى المستوى الحقوقي، كانت الحقوق توزع على الناس، حتى لو كان بعضهم على خلاف مع الامام (ع). بل حتى لو كان بعضهم يكره الامام (ع) ويتمنى زوال حكمه، كما كان الحال مع قبيلتي «باهلة وغنّية»<sup>105</sup>.

وبالاجمال، فقد كانت حاكمية الشريعة في تلك الفترة الزمنية، مهيمنة على الوضع العام. وبذلك ادرك الناس طبيعة السلطة الشرعية، وفهموا ابعاد الاحكام وملاكاتها في الضبط الاجتماعي، وادركوا ايضاً طبيعة الحقوق المدنية.

#### واقعية القانون الشرعي:

وأثبتت حكومة امير المؤمنين (ع) ان للاحكام الشرعية طبيعة واقعية. فلا الخصوص عمم الحكم الشرعي، ولا العموم خصص ذلك الحكم. أي لا كرهه (ع) لقبيلتي باهلة وغنّية حرمهما من عطاء بيت المال، ولا حبه (ع) لعشيرته واهل بيته (ع) كان مبرراً لزيادة عطائهم من بيت المال. وبتعبير ثالث، ان الكره لم يغير حكماً، ولم يبدل الحب أمراً شرعياً جاء به الدين.

ولم يشتك الامام (ع) أصلاً من استحالة التوفيق بين اصدار الحكم وبين تطبيقه، خصوصاً فيما يتعلق بتحقيق العدالة الحقوقية والاجتماعية بين الناس. فقد قال (ع): «لو كان المالُ لي لسويت بينهم، فكيف وإئتما المالُ مالُ الله». وهذا هو حكم نظري بالمساواة؛ وعند التطبيق ساوى فعلاً بينهم في العطاء.

نعم، كان هناك خللٌ في خصائص شريجة من الناس أتعبها تعلق أمير المؤمنين (ع) بالآخرة، في الوقت الذي كان نظرها شاخصاً الى الدنيا ومتعلقاً بزخارفها ومتعها، فدمّها (ع) بشدة وتمنى ان ييادها بعدوّها. ولكن الامام (ع) عالج مشكلة أفراد تلك الشريجة، خصوصاً أهل الكوفة الذين اتعبهم التفكير بالآخرة، وحثهم على جهاد عدوهم ومقاتلته. وعالج مشاكل الدولة عبر محاسبة بعض الولاة الذين أكلوا من بيت المال

104 «الكافي» - كتاب الحدود ج 7 ص 260.

105 «الغارات» ص 12.

بغير حق كما كان الحال مع زياد بن أبيه، ومصقلة بن هبيرة وغيرهما. وعزل البعض الآخر لضعفه، كما كان الحال مع محمد بن ابي بكر واليه على مصر حيث عزله لضعف فيه واضطراب الأمر عليه.

وهكذا كانت سياسة الامام (ع): تطابق النظرية مع التطبيق، وتطابق الأحكام - بما فيها من أوامر ونواهي - مع التنفيذ. وهذا يثبت واقعية الشريعة في دولة القانون.

والمفتاح في قضية حكم القانون والشريعة هو «الشريعة» وليس الاكراه. ونعني بشريعة حكومة أمير المؤمنين (ع) هو أن الامام (ع) كان مَحْوِلاً من قِبَلِ النبي (ص) بالادارة الشرعية للامة. فكل ما كان يصدر عن الامام، (ع) كان له امضاء شرعي من قبل رسول الله (ص). فالشريعة كانت مفتاحاً لتطبيق القوانين في المجتمع. وكما أن هناك الزاماً شرعياً يدفع الضريبة، فإن هناك شرعية في المطالبة بها من قِبَلِ الحاكم العادل أو مَنْ يمثله. فالشريعة تجعل تلك العملية (الدفع والاستلام) عملية قانونية تميل النفس الى أدائها.

ولكن لو كانت السلطة فاقدة لمثل تلك الشرعية، لأصبحت عملية أخذ الضريبة من المالك عملية انتهاك لحرمة الملكية الشخصية. وهنا يتبدل الإلزام - تحت ظل الظالم - الى عملية إكراه واجبار. ومن هنا أصبح مجتمع القانون الذي قاده أمير المؤمنين (ع)، مجتمعاً حضارياً متطوراً يحمل معه آلات علاج مشاكله الشرعية، ووسائل حل معضلاته الاجتماعية.

### حكومة الامام (ع) ومباني العقلاء:

وكان تطبيق القانون في زمن الامام (ع) يعني أن هناك: سلطة، واتفاقاً، وعقلانية في النظام القانوني. فالنظام القانوني يرفع الإكراه، ويقبل المنطق (الدليل العقلي)، ويساهم في الاتفاق الاجتماعي العام بخصوص الواجبات المدنية. فيكون هدف القانون هو اخضاع السلوك الانساني لاحكام الشريعة في المجتمع. والعدالة والانصاف ومحاربة الظلم من الأمور التي يقرّها العقل. اذن، نستطيع الآن ان نقول بأن حكومة أمير المؤمنين (ع) كانت حكومة الشريعة والعقل في المجتمع الانساني. واذا اقتربنا من إدراك كيفية تحويل الامام (ع) تلك الدولة الواسعة الى دولة قانون وشريعة ومنطق، لاقتربنا من إدراك حجم المكسب الاخلاقي الذي كسبته الأمة في تلك الفترة الحاسمة من عمرها.

ولاشك أن إرادة حكومة الامام (ع) في تنظيم المجتمع وادارته، كانت إرادة عقلانية وشرعية في الوقت نفسه. لأن العلل الحُكْمِيَّة المرتبطة بالمعلول (الموضوع) - التي كانت تعرضها - كانت عللاً يقبلها العقل. وفوق كل ذلك كانت عللاً سماوية مستمدة من القرآن والسنة، بينما كانت علل مناوئيه باطلة وغير صالحة للبقاء أو الانتقال.

والانتقال من الصلاحية الشرعية الى حكم القانون، كان يتطلب ادراكاً بأن الحاكم قادراً على الاجابة عمّا يدور في أذهان الجماعة. فقد كانوا يسألونه وكان (ع) يجيبهم. وكان يقول: «يا معشر الناس سلوني قبل أن تفقدوني. هذا سفظ العلم. هذا لعابُ رسول الله (ص). هذا ما زوّني رسول الله (ص). فاسألوني فإن عندي علم الاولين والآخرين. أما والله لو تُنيت لي وسادةٌ وجلستُ عليها لافتيت أهل التوراة بتوراتهم...وأهل الانجيل بإنجيلهم...وأهل القرآن بقرآئهم...»<sup>106</sup>.

لقد كان خطاب الامام (ع) موجّهاً الى العقلاء في المجتمع. فهو بتلك اللغة الادبية البديعة العالية، كان يصوّر معاني الدين بأبداع الصور. ولا شك أن تلك الصور البديعة لا يفهمها الا العقلاء. وقد أشار الكتاب المجيد الى العقلاء في المجتمع بأفضل إشارة، فقال: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ)<sup>107</sup>، (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُصْرِبِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)<sup>108</sup>. والعقلاء في المجتمع هم خلاصة العقل العام. فإذا كسبهم الحاكم، فإن حكمه يكون مدعاةً للاستقرار والثبات. وقد قال (ع) في رسالته الى الاشرى: «وَأَكْثَرُ مُدَارَسَةِ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَافَتَةِ (أَيِّ مَجَالِسَةِ) الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيثِ مَا صَلَّحَ عَلَيْهِ أَمْرٌ بِلَادِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ»<sup>109</sup>.

ان الضمير العام الذي يؤمن بالحاكمية الشرعية، هو الذي يُدرك - بعمق - معنى الحرية تحت ظلّ القانون. أي أن الانسان - في دولة القانون والدين - يستطيع أن يعبر عن رأيه في الوقت الذي لا يخاف فيه على ماله ونفسه وعرضه من الانتهاك. وربما كان هذا هو السبب الذي جعل الخوارج يتمادون في مواجهتهم اللفظية مع الامام أمير المؤمنين (ع). فقد كانوا في مأمن تامّ وطمأنينة بأن الامام (ع) لا يودعهم السجن، ولا يعذبهم، ولا يقتلهم. بل عندما كانوا يسبّون الامام (ع) ويتوثّب الناس لقتلهم، كان (ع) يقول للناس: «...إنما هو سبٌّ بسبِّ. أو عفوٌ عن ذنب»<sup>110</sup>. فيتركونهم وشأنهم.

ومن الطبيعي فان تركيبة القانون الشرعي تتناسب مع حاجات الشعوب على اختلاف لغاتها وظروفها الاجتماعية. ذلك لان الشريعة تعاملت مع الكليات التي يستقبحها عقل الانسان كالقتل والاعتداء والظلم والفحشاء والكفر والشر، فعاقبت عليها. وتعاملت مع الكليات التي يستحسنها كالتعاون والصفح والتسامح والايثار والعدل والانفاق والحب والخير، فشجعت على فعلها. وبذلك جاءت التركيبة القانونية للمجتمع

106 «الاختصاص» - المنسوب للشيخ المفيد ص 235.

107 سورة آل عمران: آية 190.

108 سورة العنكبوت: آية 43.

109 «نهج البلاغة» - كتاب 53 ص 552.

110 «نهج البلاغة» - القصار من حكمه (ع) رقم 410 ص 692.

الاسلامي منسجمة مع فعل الخير بعنوانه المطلق، ونبذ مطلق الشر على وجه الارض. وقانونٌ كهذا ليس اكرهياً ولا كبحياً ولا قمعياً. بل هو مصممٌ لطرد الشر من الضمير الانساني، وادانة كل ما يمتُّ اليه بصلة. وعندما نُشير الى النظام القانوني الذي يحكم بلداً ما، فاننا لا نقصد به انتشار المحاكم والقضاة وزيادة عدد الشرطة والعيون. بل نقصد: أن للقانون الشرعي وظيفة عملية في تنظيم أمور الناس وتثبيت حقوق الجماعة، عبر التلويح بالعقوبة للمخالفين والمتحرفين عن الجادة الشرعية.

ولذلك كان من وظائف حكومة الامام (ع) وضع سيطرة شرعية على الظواهر الاجتماعية الخطيرة كالانشقاق، وعصيان أوامر القائد الشرعي (ع)، والاستئثار بالثروة الاجتماعية، ومطلق الظلم الاجتماعي. ولذلك كان (ع) يقول: «أنا فقأت عين الفتنة، ولم يكن أحدٌ ليحتريء عليها غيري... ولو لم أكن بينكم ما قوتل أصحاب الجمل وأهل النهروان»<sup>111</sup>.

ويُفهم من قوله (ع) أنه لو كان الواجب في كل فتنة تقع بين المسلمين التهرب منها بدعوى حرمة قتال أهل القبلة، لوجد أهل الفسق سبيلاً لارتكاب المحرمات من سفكٍ للدماء، وهتكٍ للأعراض، وغصبٍ للأموال. وتلك الصلاحية الممنوحة له للسيطرة على الوضع الاجتماعي، تمنحه استخدام مختلف الوسائل المشروعة لتحقيق الاستقرار والأمن الجماعي. ولم تكن تلك وظيفة سياسية فحسب، بل كانت وظيفة دينية حتمية.

## 29 - النظام القضائي

ان المبادئ التي طرحها أمير المؤمنين (ع) في وصيته لملك الاشر، تفصح عن ان التنازع بين الناس يمكن ان يحلَّ بطريقة قانونية تقوم على أساس عرض الحجج والبراهين من قبل الأطراف المتنازعة. وهذه الطريقة العقلانية يضمنها النظام القضائي. خصوصاً القاضي العادل، الذي لا يفكر بالانحياز لطرفٍ دون آخر. لانه «أوقفهم في الشبهات، وأخذهم بالحجج، وأقلَّهم تبرماً. بمراجعة الخصم، وأصبرهم على كشفِ الأمور»<sup>112</sup>.

### وظائف القاضي:

وللقاضي وظائف مهمّة في النظام القضائي، نلخصها في النقاط التالية:

111 «الغارات» ص 5.

112 «فحج البلاغة» - خطبة 53 ص 556.

- 1-** كشف الحقيقة الخارجية وتثبيتها. وكشف الحقيقة يحتاج الى مجموعة أدلة وطرق معرفتها. فهناك قرائن موضوعية وهناك قرائن شرعية تثبت ارتكاب العمل المخالف (على الصعيد الجنائي)، وتثبت الحق المالي أو الملكية مثلاً (على الصعيد الحقوقي)، وتثبت المخالفة الاخلاقية (على صعيد ما يُطلق عليه بحقّ الله تعالى).
- 2-** تشخيص القانون الشرعي للقضية المتنازع فيها. وهذا التشخيص يتطلب معرفة علمية توصل القاضي الى منابع الحكم الشرعي. ويتطلب ذلك فهماً لمعاني الالفاظ الشرعية ومذاق الشارع الحكيم وانطباق شروط الحكم على القضية مورد النزاع.
- 3-** ربط الحكم الشرعي بالموضوع، في القضية القضائية. ولا شك أن ربط حجم العقوبة بطبيعة المخالفة هو من مهمة قاضي الشرع في المحكمة. وهذا الربط هو الثمرة العظمى لعلم القاضي وعدالته وحسن أدائه في العملية القضائية.
- وبطبيعة الحال، فان قاضي الحق يرجع الى مباني العقلاء والدليل العقلي، في كشف الحجج القانونية والاستفادة من القرائن الموضوعية في اصدار الحكم النهائي. أي ان هناك مساحات عقلية واسعة يستطيع ان يستثمرها القاضي في تحديد الحكم، بالاضافة الى المساحة الشرعية المنصوصة. فالإقرار بأن ذات البعل تطلب بعلًا، كما في رواية صاحب «المناقب»<sup>113</sup> يعني إعمال الفكر بأن البعل الاول لا يستطيع المقاربة، وعليه فان النكاح ينبغي ان يفسخ، ولها الحق في الزواج من رجل آخر. وحدّ الشهود الثلاثة الذين لم يكتمل عددهم الى الاربعة في شهادة على «زنى»<sup>114</sup>، هو إعمالٌ للعقل بضرورة تحقق الشروط الشرعية وعندها يمكن الأخذ بشهادتهم. وأمر النساء بالنظر الى الفتاة التي أهدمت بارتكاب الفاحشة<sup>115</sup>، هو إعمالٌ للعقل بضرورة اكتشاف حقيقة ما حصل بمن عليها خاتمٌ من الله عزّ وجلّ.
- لقد كانت القوّة العظيمة الكامنة في النظام القضائي زمن الامام (ع)، تحرك المجتمع نحو لونٍ من الاستقرار النفسي والطمأنينة. وكان شعور الجماعة في أن احكام القرآن اذا طُبقت، فانها ستحقق عدالة قضائية وحقوقية بين الجميع. وقد تحقق ذلك فعلاً. ذلك لان انتشار مفاهيم القرآن الكريم بذلك الوضوح عند الامة جعل قضية التوقع الاجتماعي للعقوبات أمراً حتمياً. وكان هذا مهماً على صعيد الوضع الاجتماعي العام، لان التوقع الاجتماعي للعقوبات يردع الجناة عن العبث بمقدرات الناس.

**113** «المناقب» - في احبته على المسائل العويصة.

**114** «تهذيب الاحكام» - كتاب الحدود في اواخر حد الزنى.

**115** «من لا يحضره الفقيه» - الشيخ الصدوق ج 4 ص 127.

## مبنى اللغة القضائية:

ومن الطبيعي، فإن القضاء لا يترك بصماته على المجتمع، ما لم يكن مسلحاً بلغة قضائية خاصة يفهمها الناس. وتلك اللغة مبنية على أسس ثلاثة:

**الاول:** منطقية القرار القضائي. هو يعني ان القاضي يستثمر استخدام المقدمتين: الصغرى والكبرى من أجل الوصول الى النتيجة. والمقدمة الصغرى تشمل دائماً المصاديق، بينما تشمل المقدمة الكبرى الكليات. ولا يمكن الوصول الى المقدمة الصغرى ما لم يستمع القاضي الى الآراء المتضادة بين المدعي والمدعى عليه، وما لم يدرك القرائن الموضوعية الخاصة بالقضية ويحللها. وقد علّمنا الامام (ع) - من خلال روايات عديدة- طريقة تطبيق القوانين القرآنية على الوقائع القضائية المتنوعة.

**الثاني:** بلاغة القرار القضائي. والبلاغة في القرار القضائي تُقنع الناس بقوة الحق، وتُشعرهم بقوة الشريعة وقوة الاستدلال العقلي ايضاً. والبلاغة في القرار القضائي قضية شرطية في التأثير على أفكار الناس وأعمالهم. وتدلّ الروايات الواردة عن الامام (ع) أن اللغة القضائية قد أُستخدِمت استخداماً بلاغياً دقيقاً من أجل إقناع المخاطبين بقوة الحق والدليل الشرعي. فقولته (ع): «قد أعذر من أنذر»<sup>116</sup>، و«إن شاء أخذ دية كاملة ويعفو عن صاحبه»<sup>117</sup>، و«لا على الحاملِ حدٌّ حتى تضع»<sup>118</sup>، كله يدلُّ على بلاغة القرار القضائي، وعلى قوة تأثير ذلك على الناس.

**الثالث:** لحن القرار القضائي. ونقصد بالحن القرار هو اللغة الضامرة للقرار التي تؤثر على القيم الاجتماعية وتحفظها من التفسخ والانحلال. وفيها اصطلاحات مهمة مثل: القصاص، والضرر، والدية، والجلد، والرحم، ونحوها. ولاشك ان لحن القرار القضائي يُفهم من قبل المجتمع، على اساس ان القضاء الاسلامي هو: قضاء جدي، موضوعي، عادل، ونزيه.

## خصائص النظام القضائي زمن الامام (ع):

واحتوى النظام القضائي زمن الامام (ع) على مجموعة خصائص، منها:

116 «الكافي» - كتاب الديات. باب من لا دية له. ج 7 ص 292.

117 م. ن. - ج 7 ص 317.

118 م. ن. - باب الحدود ج 7 ص 199.

أولاً: كان اشراف أمير المؤمنين (ع) على القضاء أمراً لا بد منه. لان القرار القضائي كان يجيد احياناً عن الحكم الشرعي الصحيح. فهذا شريح قد ارتكب أخطاءً فادحةً في القضاء، ولولا اشراف الامام (ع) على عمل شريح لكان هناك ظلم.

ومن الطبيعي، فإن انزال الحكم الشرعي الى منزلة القانون الذي ينفذ لحل النزاع بين الناس، لا يتم بشكله المطلق ما لم يكن القاضي قاضي حق. أي أن القاضي ينبغي ان يكون كما وصفه الامام (ع): «أوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج...»<sup>119</sup>.

ثانياً: يقوم القاضي بتفسير الحكم الشرعي وتطبيقه على الواقع. فاذا كان لدى القاضي علماً بالحكم الشرعي، فان علمه سوف يساعده على الوصول الى الحكم النهائي. أي ان تشخيص الحكم والموضوع بطريق صحيح سوف يؤدي الى اقرار الحكم النهائي.

والرواية التي ذكرت قوله (ع) بأن أقل الحمل ستة أشهر، بدليل الكتاب المجيد: (... وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ...)<sup>120</sup>، (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ...) <sup>121</sup>، من أروع الاستنتاجات في الربط بين تفسير الحكم الشرعي وفهم الواقع الاجتماعي. ثم الحكم النهائي في تلك القضية القضائية.

ثالثاً: ان قرار القاضي بالحكم على الجاني ينبغي ان لا يكون قراراً شخصياً. ولذلك قال (ع) في صفة القاضي: «... ممن لا تضيقُ به الأمورُ، ولا تمحكهُ الخصومُ، ولا يتمادى في الزلّةِ، ولا يحرصُ في الفيءِ الى الحقِّ اذا عرفهُ»<sup>122</sup>. وهذا يعني ان بعض الخصال الشخصية للقاضي ينبغي ان لا تؤثر على قراره القضائي المرتبط بالمجتمع.

رابعاً: لما كان القضاء يتطلب شجاعة من القاضي في إصدار حكمه ضدّ الجاني أو المفسد ومعاقبته، فان عملية تعيين القاضي لا تخضع لموافقة الناس أو معارضتهم، بل لابد للقاضي من تعيين من قبل ولي الأمر. ولذلك عين أمير المؤمنين (ع) شريحاً للقضاء في الكوفة، وأوصى (ع) ولاته بتعيين القضاة في أمصارهم دون موافقة العامة من الناس بالضرورة.

خامساً: يتوقع الناس من القرار القضائي أن يكون معتمداً بصورة مباشرة على أحكام الشرع والعقل. وما يبحث عنه القاضي في الخارج هو القرائن الموضوعية التي تساعده على صناعة القرار القضائي. فالقرار

---

119 «فج البلاغة» - كتاب 53 ص 557.

120 سورة الاحقاف: آية 15.

121 سورة البقرة: آية 233.

122 فج البلاغة - كتاب 53 ص 557.

القضائي اذن، يُعتمد في صياغته على مبنى العقلاء، بالاضافة الى مبنى الشريعة. أي ان طريقة اتخاذ القرار من قبل القاضي الشرعي هي طريقة عقلائية. فالبحث عن الحجية، والاستماع للشهود، والاستماع للمدعي والمدعى عليه، والبحث عن القرائن، كلها طرق عقلائية شرعية للوصول الى القرار النهائي العادل للقضية القضائية.

**سادساً:** ومن اجل ضمان العدالة القضائية، لابد من ضمان امرين: 1- علم القاضي. 2- حالته العقلية والنفسية. وفي كليهما تحدد قدرته على صنع القرار الصحيح في القضية موضع البحث.

فعلى صعيد العلم، فقد ورد عنه (ع): «...وأوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج...»<sup>123</sup>. وهو يعني أعلمهم بطرق القضاء، وأعلمهم في سلوك طريق الحجج والادلة والبراهين.

وعلى صعيد الحالة العقلية، فليس للقاضي ان يقضي وهو غضبان<sup>124</sup>، ولا جائع<sup>125</sup>، كما علم أمير المؤمنين (ع) قاضيه شريح بذلك. وأضاف (ع): «...ثم واس بين المسلمين بوجهك ومنطقك ومجلسك، حتى لا يطمع قريبك في حيفك، ولا يياس عدوك من عدلك»<sup>126</sup>.

وهنا تلعب خلفية القاضي الثقافية والاجتماعية والعلمية دوراً مهماً، في تحديد قدرته على اختيار البديل القضائي الافضل، عندما يحكم على المدعي أو المدعى عليه.

### 30- النظام الجنائي

ويتعامل النظام الجنائي مع الجناية، وتعريفها وضبط حدودها. والنظام الجنائي يخضع للقانون الجنائي العادل الذي جاء به الاسلام. فاذا صرح القانون الجنائي الشرعي بأن القتل المتعمد جريمة، عُدَّت تلك العملية في ازهاق روح بريء جناية يعاقب عليها القانون. وقد قال تعالى في كتابه المجيد: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ...) <sup>127</sup>. واذا قال القانون الشرعي بأن ارتكاب السرقة جناية، عُدَّت تلك العملية في كسر الحرز المقل عملية جنائية. واذا اعلن القانون الشرعي أن ارتكاب الفاحشة جُنحة عُدَّ ذلك العمل عملية يعاقب عليها القانون.

123 «فحج البلاغة» - كتاب 53 ص 556.

124 «الوسائل» ج 18 ص 156.

125 «مستدرک الوسائل» ج 3 ص 195.

126 «الوسائل» ج 18 ص 155.

127 سورة البقرة: آية 179.

فالجناية هو كل ما يصفه لنا الشارع الحكيم بأنه جناية. ومن هنا نعلم أن حدود الجناية هي تلك التي يحددها لنا القانون الشرعي. ولا سبيل لنا لمعرفة ذلك الا عن طريق الدين. وقد كان أمير المؤمنين (ع) على إدراك تام بذلك. فقام بعدة خطوات من اجل بناء نظام جنائي اسلامي في المجتمع:

**أولاً:** إحكام بناء سجن الكوفة كي لا يهرب الجناة منه، فيرتكبوا جنایات جديدة. وقد قال (ع):  
اما تراني كيساً مكيساً  
بنيتُ بعد نافعٍ محيِّساً<sup>128</sup>

وكان السجن مبنياً من القصب، وكان الجناة يفرجون ويخرجون منه. فهدمه الامام (ع). وبنى سجنًا بالحص والآجر. وكان هذا العمل في بداية عهده (ع) من الاعمال المهمة في بناء دولة القانون. فكان (ع) يدرك بأن للسجن وظيفة عزل الجناة عن الاختلاط بالمجتمع، وضمان نيلهم العقوبة المقررة بحقهم اذا ثبتت ادانتهم.

والقاعدة أن الحرمان النفسي والجسدي للسجين من الاتصال بالمجتمع الكبير، يفرض عليه ضغوطاً من أجل تغيير سلوكه الاجتماعي. ومن هنا كان السجن علاجاً لبعض الحالات الانحرافية المتمثلة بالفساق من العلماء والجاهل من الأطباء<sup>129</sup> والسارق للمرة الثالثة<sup>130</sup> ونحوه. أي ان السجن لا يصلح ان يكون أداة لعلاج مطلق الجنایات والجرائم كما هو معمول به اليوم في مجتمعات العالم.

**ثانياً:** ارسال الحقوق المدنية كمقدمة لتقليل الجنایات. فقد قام أمير المؤمنين (ع) بتحقيق العدالة الحقوقية بين الناس، من حيث المساواة في العطاء من بيت المال، وحثّ الموسرين على دفع حقوقهم المالية، والتأكيد على نظافة سوق الكوفة من الغش والاحتكار والاحتيال. وبذلك ساهم (ع) بتقليل حجم الجنایات الاجتماعية الى أدنى حدّ ممكن.

ولا شكّ ان الحاجة والفقير قد تؤديان الى ارتكاب السرقة والفاحشة. والفكرة الاساسية هنا هو ان الوضع الاجتماعي الصحيح والظروف العادلة التي يعيشها الانسان هي التي تؤدي بالناس الى سلوك سلمي غير عدواني. أي ان العدل، ووضع الامور مواضعها، واشباع حاجات الانسان هي التي تصرف ذهن الانسان عن التفكير بارتكاب الجنایات، وكان عصر أمير المؤمنين (ع) مثلاً طيباً لذلك.

**ثالثاً:** لم يستخدم الامام (ع) اسلوب التهديد والوعيد في انتزاع اعترافات المتهمين، بل كان (ع) يستخدم اسلوب العلم والذكاء في حثّ الجاني على الاقرار بجنایته.

128 «الغارات» ص 79.

129 «من لا يحضره الفقيه» - الشيخ الصدوق. كتاب القضاء ج 3 ص 20.

130 م. ن. - ج 3 ص 20.

والأمثلة على ذلك كثيرة، منها:

أ - التظاهر بتزويج الغلام من المرأة التي ادّعت أنها ليست أمه<sup>131</sup>. وكان ذلك سبباً في اعتراف الام بولدها.

ب - صبّ الماء الحار على بياض البيض الذي وضغته امرأة على ثوبها، مدعية بأن الرجل قد افتضحها فتبين الغش في ذلك، وأقرت المرأة على فعلتها<sup>132</sup>.

ج - تفريق الشهود في قضية قتل رجل<sup>133</sup>. فأقرّ الشاهد الاول على انفراد ثم الثاني... وهكذا حتى أقرّوا جميعاً بارتكاب الجناية.

ولو درسنا التأريخ الجنائي العالمي لرأينا بأن الاعترافات كانت تنتزع من خلال تعذيب المتهمين. ولكن أمير المؤمنين (ع) لم يستخدم أي ضغطٍ مادي أو معنوي على المتهمين. بل كان علمه (ع) يساعده على انتزاع الاقرار والاعتراف من المجرمين.

رابعاً: تعدُّ إقامة الحدود على الجناة، أفضل السبل لتحقيق العدالة الجنائية في المجتمع. وفي إقامة الحدود ايضاً: ردعٌ عظيم للناس، وتنظيفٌ للمجتمع من أدران الفساد الاجتماعي.

ولا شك ان العقوبة هي الحل الأخير لأمان المجتمع. فالاسلام يفترض ان يعيش الناس حياةً طبيعيةً، تُعرفُ فيها الحقوق وتُشخصُ فيها الواجبات. ومن أجل ذلك لابد ان يلمس الناس رادعاً يردعهم عن ارتكاب المخالفات الشرعية والقانونية. ولا بد لهم ان يدركوا ان الأفضل هو ممارسة الكسب الحلال بدل السرقة والغصب، وممارسة العلاقات الطبيعية السلمية بدل القتل والاعتداء والعنف، والتزوّج الشرعي والصحيح بدل الممارسات الجسدية البعيدة عن مباني الدين الحنيف.

وفي رواية الشيخ الصدوق (ره) التالية معنى كبير. فقد بعث معاوية يسأل أبا موسى الأشعري عن زوج قَتَلَ رجلاً وجده مع زوجته يرتكب المنكر، فسُئِلَ الامام (ع) عن ذلك، فقال: «والله ما هذا في هذه البلاد وما هذا بحضرتي، يعني الكوفة وما يليها»<sup>134</sup>. ومعناه ان محيط دولة أمير المؤمنين (ع) كان آمناً نظيفاً من تلك الألوان المرعبة من الانحرافات الاخلاقية.

131 «الكافي» - كتاب القضاء. النوادر. ج 7 ص 423.

132 م. ن. - ج 7 ص 422.

133 م. ن. - ج 7 ص 371.

134 «من لا يحضره الفقيه» - نوادر الدييات ج 4 ص 127.

**خامساً:** وبفضل النظام الجنائي الديني، كانت الناس زمن أمير المؤمنين (ع) تعيش حياة أخلاقية طبيعية نظيفة. حتى ان المعاقبين في عهد الامام (ع) كانوا - وعندما تنتهي عقوبتهم - يخرجون الى المجتمع الكبير ويعملون بحرية. ورواية الحبشي الذي قطعه خير الناس، تدلّ على الراحة النفسية التي كان يتمتع بها عندما قال: قطعني خيرُ الناس علي بن ابي طالب (ع)<sup>135</sup>. وتدلّ ايضاً على انه كان يعمل في المدينة في حقل السقاية. وهذا يعني انه ترك حرفة السرقة، وتوجّه نحو العمل الحلال كي يكسب رزقاً حلالاً مباركاً.

اذن، فان السلوك الجنائي يتضحّ عندما يستشعر المجتمع ظلماً في الحقوق، وضعفاً في الحكومة، بينما ينتفي ذلك السلوك عندما يعيش الناس عدلاً وانصافاً في الحقوق والواجبات، وقوةً في الحكومة. وهكذا كانت حكومة الامام (ع) عادلة وقوية. عادلة بين الفقراء والأغنياء، وقوية في تطبيق حكم الله في الحدود والعقوبات. ولاشك ان الجنايات لا تحصل من فراغ، بل لابد لها من منشأ اجتماعي كالعداوة، والظلم، والروح الشريرة، والانحراف، ونحوها. ولم يتعامل الاسلام مع الجنايات بعلاج العقوبة فقط. بل حاول ايجاد مناخ مناسب لمنع الجريمة من الوقوع في المجتمع، عبر الحثّ على الأخوة الدينية والانسانية، ونبذ العداوات القبلية، والمساعدة والتعاون على إنجاح الحياة الدينية للمجتمع، والمساعدة في العطاء، ونبذ الطبقية والظلم الاجتماعي. فقد كان عصر الامام (ع) عصر ازدهار السلام الاجتماعي ونبذ الجريمة.

\*\*\*\*\*